سلسلة دراسات الفكر المعاصر ٢

# الإلحاد المعاصر على طاولة التشريح

الشيخ سامر توفيق عجمي

مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

# سلسلة دراسات الفكر المعاصر

التعرُّف على الأفكار المعاصرة من أوجب واجبات عصر السماوات المفتوحة وطفرة تقنية المعلومات؛ فكما وَرَد عن الصادق (ع): «العالم بزمانه لا تهجُم عليه اللَّوابسُ.» وعن علي (ع): «حَسْبُ المرءِ ... من عِرفانه، عِلْمُه بزمانه.» فكم من شبهات قديمة وخدع بالية تحاول تجديد نفسها في كل عصر بثوب جديد ومصطلحات ومقاربات حديثة، إلا أن العالم المدقق يستطيع أن يميّز بينها وبين الإبداع الفكري الذي ينطلق من ثوابت الدين وأصوله، ويبدع في التطبيقات والتفريعات.

في عصر جاوزت فيها أعداد الجامعات والمؤسسات البحثيَّة عدة آلاف وتعمل كماكِّينات لا تتوقف لتوليد الأفكار، قررنا في «مركز براثا للدراسات والبحوث» ومن خلال (سلسلة دراسات الفكر المعاصر) أن نقدم للقارئ قراءة نقديَّة واعية للنظريات والأفكار المعاصرة، على موازين معرفية إسلامية أصيلة؛ من أجل إطفاء بريق كل ما هو جديد، وإزالة الرهبة التي تصنعها أدوات التبجيل والتفخيم، لنحاكم الفكرة المجرّدة على أرضيّة موضوعيّة.

بعد طفرة تقنيات الاتصال والمعلومات وانتشار شبكات التواصل الاجتماعي، نشأت همومٌ وأسئلة ودوافع وأنماطُ تفكير جديدة أعادت هندسة المفاهيم التي كانت معتادة، وأمام موجات الإحيائية والحداثوية والإنسانوية و...، كان لابد من الاستجابة لهذه التحديات باستحداث مشروع فكري إسلامي فاعل، يفرز بين الجديد والمستعاد، ثم يفكك الأفكار وينسبها إلى أصولها وأوَّلياتها، ويكشف الغموض عن الأفكار الملتبسة والمتلبِّسة. أو تقديم قراءة جديدة للمفاهيم الأصيلة تجيبُ عن أسئلة الحاضر، من خلال مقاربات تأسيسية تحافظ على الهوية الإسلامية.

■ الإلحادُ المعاصرُ على طاولة التَّشريح

سامر توفيق عجمي

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: ٢٠٢٤ م - ١٤٤٥هـ
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

سلسلة دراسات الفكر المعاصر ٢

# الإلحاد المعاصر
## على طاولة التشريح

سامر توفيق عجمي

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

## ● مقدمة:

كلُّ شـخص منّا يلاحظ أنّ هناك نقاشًـا وجدلاً بين جيل الشّباب والنخب الفكريّة حول نسـبة انتشار الإلحاد في العالم العربيّ والإسلاميّ، فبعضهم يضخّـم ظاهرة الإلحاد إلى درجة يُشـعرنا بأنّها منتشرة بكثرة بين الشـباب وفي كلّ بيـت، وبعضهم الآخر يُقلِّل من شـأنها وخطورتها، ويدسُّ رأسـه في الـتراب، فـلا يريـد أن يُبـصر الحقائق ويعـترف بالوقائـع، وبين هذا وذاك، خـير الأمور الوسـط، أي الاعتراف بوجود اتّجـاه نحو الإلحاد في مجتمعاتنا العربيّة والإسـلاميّة، بغض النظر عن مقدار نسـبته رياضيًّا، لأنّ تحديد النسب على نحوٍ دقيق أو تقريبيّ، يحتاج أوّلاً إلى دراسات ميدانيّة واسـتطلاعات رأي وإحصاءات. وثانيًا: يصعـب الحصول في مجتمعاتنا العربيّة والإسـلاميّة عـلى أرقام دقيقة حول الإلحاد، وذلـك لعوامل عدّة، أهمّها: كتمان الاتّجاه نحو الإلحاد عند بعض الشـباب، نتيجة تقاليد البيئة العائليّـة وأعراف المجتمع، وغيرها من العوامـل التي تدفعهم نحو إخفاء حقيقة موقفهم.

لكن، القدر المتيقّن، أنّ بعض الشباب قد تأثّر بالاتّجاه الإلحاديّ، على مستويين:
**المستوى الأوّل:** التفكير الإلحاديّ، أي أنّه وقع تحت قصف الشّبهات التي يطرحها الملحدون، ممّا أثَّر في طريقة تفكيره تجاه القضايا الدينيّة، فصار مُنكِرًا لوجود الله, تعالى، أو مُشكِّكًا فيه، أو في الحدّ الأدنى يُناقش قضايا الوحيّ، أو النبوة، أو المعاد، أو المهدويّة ... إلخ.
**المستوى الثاني:** السلوك الإلحاديّ، كثير من الشباب, وإن لم يكن ملحدًا على مستوى التفكير والعقيدة، إلّا أنّه كذلك سلوكيًّا وعمليًّا، حيث يبتعد عن الدِّين في الممارسة، فيترك الصلاة أو الصوم، ولا يبالي بالأحكام الشرعيّة، بل يسخر منها، ويستهزئ بها، مناقشًا في جدواها ومنفعتها، كما في السخرية من قضيّة الحجاب أو الاستهزاء برمي الجمار في الحجّ أو...
ولكن هل المستوى الثاني هذا هو مؤشِّر لانتشار الإلحاد؟ الجواب: قطعًا لا، لأنّ الإلحاد ليس بمعنى ترك التديّن في مقام العمل، وإن كان مُنطلقًا من الشّبهات والإشكاليّات، بل الإلحاد االعتقاد بعدم وجود الله, تعالى، وإنكار أن يكون هناك خالق لهذا الكون المنظَّم المُدهِش, وصانع لهذا العالَم المُتقَن العجيب.
وبالتجربة والملاحظة، إنّ غالب الشباب الّذين لا يلتزمون بالأحكام الشرعيّة عمليًّا، ولا يبالون بالتعاليم والقيم الدينيّة، هم معتقدون بوجود الله, تعالى، بل وبالإسلام بالمعنى العام، ولكن يتأثّرون بالشُّبهات والأطروحات والأفكار الإلحاديّة.

إنّ حركة الإلحاد ليست حديثة، بل هي ممتدة وعميقة في التاريخ، وهذا أمر طبيعيّ في حركة الصراع بين الحقّ والباطل، لكنها اليوم أشدّ حضورًا وأكثر فتكًا ، فالشاب اليوم، يعيش تساؤلات عقديَّة عميقة، نتيجة الانفتاح على الفضاء المجازيّ، وما يتعرّض له في تلك الساحة من قصف العقل بالمواد المغلوطة والشّبهات الفاسدة.

والجدير بالذكر، أنّه من طالع كتب الملحدين المعاصرين لا يعثر على جديد، بل هي الدعاوى نفسها التي طرحها الملحدون منذ قديم الزمان، ولكن في كلّ زمان يلبس الإلحاد لَبوسًا خاصًّا، فالإلحاد الجديد يحاول أن يلبس رؤيته ثوب العلميّة، بالاستناد الكاذب على معطيات العلوم الطبيعية؛ كالفيزياء كتجربة ستيفن هوكينغ والبيولوجيا كأطروحات ريتشارد دوكنز...

مضافًا إلى خطاب العدائية في البرامج التلفزيونية والإذاعية، والتعليميّة، والحواريّة، والوثائقيّة، والمسلسلات، والأفلام، والأغاني، والفيديو كليبات، واللوحات الدعائية في الشوارع المكتوب عليها عبارات مثل: «الأديان قصص خرافيّة»، «ليس ثمة إله»، «الملايين بخير دون الله»، «لا تؤمن بالله»،... أو الباصات كحملة «باص الإلحاد» في بريطانيا...، وكذلك القمصان والقبعات والملابس المكتوب عليها عبارات، مثل: «أنا ملحد»، «قُدْ سيارتك بعناية ليس هناك إله»... إلخ، التي تتمحور حول الفكر الإلحاديّ. فضلاً عن تأسيس مؤسّسات لدعم التحالف

الـدوليّ للملحديـن، ولها اشـتراكات ماليّة، وكذلك شـبكات كثيرة على الشابكة(الأنترنت), ومنصّات على مواقع التواصل الاجتماعيّ.

وقد أثّرت هذه الموجات بطريقة أو أخرى في شبابنا وفتياتنا في المجتمعات العربيـة والإسـلامية، وذلك لما ذكرنـاه؛ لأنّ العالم أصبح فضـاءً مفتوحًا أمام الجميع وسـقطت الحواجز الجَغرافيّة أمام المشـهد الثقافي الكونيّ، فأصبحت هذه الأفكار في متناول الجميع.

مسـؤوليتنا جميعًا، أن نسـاهم في مواجهة هذه التيـارات المنحرفة، وننبّه الشـباب منها، ونهاجم هذه الأفكار الضالّة الفاسـدة، وندافع عن عقديتنا الإلهيَّة، بالحجج والأدلة والشواهد والقرائن والبراهين.

وفي هـذا الكتاب، سنسـلّط الضوء عـلى الإلحاد، ونضعـه على مشرحة البحـث، باعتبار كونه -من وجهة نظرنا- كائنًا ميّتًا، عجلاً جسـدًا، ولذلك سـنقوم بتشريحه، وتحليله، لنكتشـف أنّه لا روح فيه ولا حياة، لا يصمد أمام المنطق والعقل والعلم والفطرة.

# الفصل الأوّل:

## مفهوم الإلحاد: دراسة تحليليّة

## المبحث الأوّل:
## ما هو الإلحاد؟

### ● أوّلًا: معنى الإلحاد في اللغة والاصطلاح:

الإلحـاد في اللغة العربيّة مأخوذ من الفعل أَلْحَـدَ أي مَالَ وعَدَل، يقول ابـن فارس: «اللام والحاء والدّال أصلٌ يدلُّ على ميلٍ عن اسـتقامةٍ. يُقال: ألْحَدَ الرّجلُ، إذ مال عن طريقة الحقِّ والإيمان»[١].

ويقال: أَلْحَـدَ في دين الله، أَي حاد عنه وعَدَلَ[٢]. ولذلك يقال: «اللَّحْد واللُّحْد: للشّـقّ الذي يكون في جانب القبر موضـع الميّت؛ لأنه قد أُمِيل عن وسَط إلى جانبه»[٣].

فلغـةً، يمكن القول: إنّ الإلحاد هو انحراف الإنسـان عن طريق الإيمان باللـه, تعالى، فهـو أعمّ من أن يكون هـذا الانحراف فكريًّـا أو عاطفيًّا أو عمليًّا.

أمّـا الإلحاد اصطلاحًـا، فهو -في الجملـة- بمعنى: إنـكار وجود الله,

---

١ - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (ل ح د).
٢ - الجوهري، الصحاح- تاج اللغة وصحاح العربية،(ل ح د).
٣ - ابن منظور، لسان العرب، (ل ح د ).

تعالى، أو بعبارة أدقّ، هو: الاعتقاد بعدم وجود الله, تعالى.

والإلحاد بهذا المعنى، ليس مجرّد حالة معرفيّة، تتعلّق بالإدراك الذهني، بـل تتجاوز المعرفة العقليّة إلى عقد القلب على مضمون قضية: «الله غير موجـود»، أو «الله معـدوم»، فالحالة المعرفيّة لإنكار وجـود الله, تعالى, يلازمهـا عقد القلب على ذلك عادةً، بأن يكتب الإنسـان بقلم العقل على صفحات القلب: أنا ملحد، ويدين بذلك في حياته لفظيًّا وسلوكيًّا.

## ثانيًا: مفردة الإلحاد في القرآن الكريم:

تبـيّن في البحـث اللغويّ، أنّه لم يكن لفظ «الإلحـاد» عند العرب عَلَمًا عـلى خصوص الّذيـن ينكرون وجود اللـه تعالى. نعم، يمكن استشـعار إطلاق هذا اللفظ في القرآن الكريم بما يشمل الملحدين بهذا المعنى أيضًا من بـاب التطبيق، أي من باب كون الّذي يُنكـر وجود الله تعالى هو أحد مصاديق مفردة «إلحاد» في اللغة العربيّة.

قال تعـالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِـدُونَ فِي آيَاتِنَا**﴾[فصلت: ٤٠]، فيظهر أنّ المقصـود بالآيات في الآية يشـمل الآيـات التكوينيّة الدّالـة عليه, تعالى، بالإضافة إلى شموله الآيات الوحيانيّة والنبويّة.

ويقول تعالى: ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْـمَائِهِ**﴾[الأعراف: ١٨٠]، إذْ يشـمل الإلحاد في أسـمائه تعـالى: الزنادقـة والدُّهريّـين والملحدين بالمعنى المعاصر.

يقول العلامة الطباطبائيّ في تفسير الآية: «... الناس من منتحلهم وزنديقهم وعالمهم وجاهلهم لا يختلفون بحسب فطرتهم وباطن سريرتهم في أنّ هذا العالم المشهود، مُتّكئ على حقيقة هي المُقوِّمة لأعيان أجزائها الناظمة نظامها...

والناس في هذا الموقف -على ما لهم من الاتّفاق على أصل الذات- ثلاثة أصناف:

١. صنف يسمّونه بما لا يشتمل من المعنى إلّا على ما يليق أن يُنسب إلى ساحته من الصفات المُبيِّنة للكمال، أو النافية لكلِّ نقص وشَيْن.

٢. وصنف يلحدون في أسمائه، ويعدلون بالصّفات الخاصة به إلى غيره كالماديِّين والدُّهريِّين الذين ينسبون الخلق والإحياء والرزق وغير ذلك إلى المادة أو الدهر...

٣. وصنف يؤمنون به, تعالى, غير أنّهم يلحدون في أسمائه، فيثبتون له من صفات النقص ما هو منزه عنه، كالاعتقاد بأنّ له جسمًا، وأنّ له مكانًا...»[1].

فالملحد مؤمن بأنّ هذا العالم المشهود، مُتّكئ على حقيقة هي المُقوِّمة لأعيان أجزائها الناظمة نظامها، ولكنه يعتقد أنّ هذه الحقيقة المقوِّمة لنظام العالم هي: «القوانين الكونيّة الفيزيائيّة»، أو «المصادفةالمصادفة»، أو «الحظ»، أو «المادة والطاقة»... إلخ، وبذلك يصدق عليه قرآنيًّا مصطلح: «الإلحاد في الأسماء».

---

١ - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٨، ص٣٤١.

ولعلّ التعبير التراثي المرادف للإلحاد في اللغة المعاصرة هو: «الدّهرية» أو الزندقة، فالدّهريّة عند العرب هم المنكرون للمبدأ والمعاد، وحمل بعضهم قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾[الجاثية: ٢٤] على هذا المعنى[١].

## ثالثًا: استعمالات مفردة «الإلحاد» في الثقافة المعاصرة:

لعلّ الإلحاد في صورته القديمة كان بسيطًا، بمعنى أنّه عبارة عن إنكار وجود الله, تعالى، وهذا هو القدر المشترك الجامع بين الملحدين. ولذا يقول عبد الكريم الشهرستاني: «أمّا تعطيل العالم عن الصانع العالِم القادر الحكيم، فلست أراها مقالة لأحد، ولا أعرف عليه صاحب مقالة، إلّا ما نُقل عن شرذمة قليلة من الدّهريّة، أنهم قالوا: العالم كان في الأزل أجزاء مبثوثة، تتحرك على غير استقامة، واصطكت اتفاقًا، فحصل عنها العالم على نحوه الذي تراه عليه، ودارت الأكوار وكرّت الأدوار وحدثت المركّبات...»[٢].

ولكن في العصور الوسطى وما تلاها، بعد الصراع بين الكنيسة وبعض النخب الفكريّة والعلميّة في أوروبا، وولادة تيارات فلسفيّة كثيرة، لم يعد لمفردة «الإلحاد»، استخدامٌ واحدٌ، بل توسّع استعمالها وأصبح أكثر تعقيدًا، إلى درجة أنّه كثيراً ما قد يقع بعض الشباب في الخلط بين المصطلحات، فيعتقدون أنّ

١ - انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢، ص٢٣٥.
٢ - الشهرستانيّ، نهاية الأقدام في علم الكلام، ص٧٥.

الإلحاد يشمل كلّ هذه التيارات التي سنأتي على ذكرها لاحقًا بالتفصيل، فهناك تداخل بين المصطلحات التالية: الإلحاد، اللاأدريّة، اللادينيّة، الربوبيّة، العَلمانيّة، اللاأباليّة أو اللااكتراثيّة... إلخ. ممّا قد يولّد التباسًا في ذهن كثير من الشّباب.

ونقف في هذه الفقرة مع مفردة «الإلحاد» فقط، لنشير إلى بعض أنواعه على نحوٍ مختصر، ونؤجّل البحث عنها على نحوٍ تحليليّ معمّق إلى المباحث اللاحقة.

الصنف الأوّل من الإلحاد، هو الإلحاد الصريح والمطلق والشامل، وهو الاعتقاد بعدم وجود الله, تعالى، أي أنّ المُلحد هو الشخص الذي يعتقد بصدق مضمون القضية التالية: «الله غير موجود» أو « الله معدوم». وهو الإلحاد الأصوليّ الراديكاليّ المتشدّد في محاربة الألوهية والأديان السماويّة والوحي والنبوة و... وهذا هو الإلحاد الذي وصفه الكاتب المصريّ عبد الرحمن بدويّ بأنّه الإلحاد الغربي بنزعته الديناميكيّة الذي عبرّ عنه نيتشه حين قال: «لقد مات الله»[1].

والصنف الثاني من الملحدين، هو الإلحاد المتزلزل والمتأرجح، وهو عدم الاعتقاد بوجود الله, تعالى، لا الاعتقاد بعدم وجود الله, تعالى، وهناك فرق كبير بين هذين الصنفين، سيظهر في المباحث اللاحقة، ولكن باختصار الإلحاد في هذا الصنف الثاني يكون المُلحد فيه متأرجحًا ومتردّدًا، فهو لم

١ - بدوي، تاريخ الإلحاد في الإسلام، ص٧.

يحسم موقفه بعد من سؤال: هل الله موجود؟ لأنّه لا يملك جوابًا قاطعًا على النفي ولا الإثبات، وهو الذي يُصطلح عليه أيضًا: «اللاأدريّة».

ويعدُّ الملحدون من الصنف الأوّل أنّ إلحادهم إلحاد قويّ ثابت وإيجابيّ، بينما هذا النوع من الإلحاد هو إلحاد ضعيف ومتزلزل وسلبيّ.

وهناك الإلحاد اللااكتراثي، وهو ذلك الشخص الذي يعيش حالة اللااكتراث تجاه الأسئلة المصيريّة الكبرى عن الوجود والكون والله، فمثل هذا الشخص لا يكترث ولا يهتمّ بالبحث عن وجود إله أم لا؟ ولا يعنيه الموضوع لا من قريب ولا بعيد.

وهناك مصطلح «الإلحاد الجديد»، الذي يراد به الملحدون الراديكاليّون المتشدّدون المعاصرون، ويبدو أنّ أول من وضعه هو جيري وولف في مقالة نشرها سنة ٢٠٠٦م، في مجلة «وايرد» البريطانية، بعنوان: «كنيسة غير المؤمنين»، والعنوان الفرعيّ لها: فرقة من الأشقاء فكريًّا يقيمون حملة ضد الإيمان بالله، هل نجحوا في كسب المتحوّلين؟ أم اقتصروا على التبشير بين جمهورهم؟ قاصدًا به طبيعة الأفكار والاتجاهات التي يعتنقها مجموعة من الملحدين المعاصرين، القائمة على أساس التشدّد وعد التسامح مع ما يسمونه الخرافات والأساطير واللاعقلانيّة الموجودة في الأديان، منهم: عالم الأحياء ريتشارد داوكنز، صاحب كتاب «وهم الإله»، وسام هاريس المتخصّص في مجال علوم الأعصاب، صاحب كتاب نهاية الإيمان THE END OF: FAITH"، ودانييل دينيت، صاحب كتاب كسر السحر "BREAKING

THE SPELL"، الذي قدّم فيه تفسيراً دارونيًّا ماديًّا لظهور الحياة، وكريستوفر هيتشنز، صاحب كتاب «الله ليس عظيمًا، كيف يسمِّم الدين كلّ شيء» "god is not GREAT..." الذي حاول فيه ربط الشرور كافة بالأديان، متّهمًا إياها بأنّها عنيفة، لا عقلانيّة، غير متسامحة، غارقة في الجهل، معادية لحريّة التعبير عن الرأي، تحتقر المرأة، تقهر الأطفال، عنصريّة، متعصّبة...

يقول ريتشارد دوكنز -بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر-: «لنتوقف جميعًا عن هذا التصنّع المقيت في إبداء الاحترام للأديان. ويقول: إن ملء عالَمٍ بالدِّين أو بالأديان كالأديان الإبراهيميّة، هو تمامًا كملْء الشوارع بالمسدسات المحشوة بالرصاص[1].

وقد تعدّى الأمر بخطاب العدائية والكراهية إلى تأليف كتب لتبسيط المفاهيم الإلحاديّة للأطفال أيضًا، كما فعلت أناكا هارس وهي زوجة سام هارس في كتابها «ما الذي تؤمن به؟» "What Do You Believe?"، أو كتاب «شجرة عائلتنا: قصة تطوّر» "Our Family Tree". وكذلك كتاب ريشتارد دوكنز «سحر الحقيقة»، "The magic of Reality"، الذي ألّفه للأطفال والمراهقين... وكثير من الكتب التي تدور حول ذلك تحت عناوين مختلفة، مثل: «تربية الأطفال بعيدًا عن الإيمان»، «دليل إلى خَلْق الملاحدة»، «تنشئة الأحرار فكريًّا»... إلخ.

---

١ - العجيري، ميليشيا الإلحاد- مدخل لفهم الإلحاد الجديد، ص١٧-١٨.

**رابعًا: الإلحاد الواقعيّ والإلحاد اللفظي:**

هنـاك صنـف من الإلحـاد يمكن -من بـاب تعدد الألفاظ لشـمول المعـاني- أن نُطلِـق عليه: الإلحـاد الكاذب، أو الإلحـاد المزيّف، أو الإلحـاد الوهمـيّ، أو إلحاد الموضـة... إلخ، فبعض الشـباب ينكر وجـود الله, تعالى, لا عن قناعة ذاتيّة بالإلحاد، وهو الذي يصدق عليه قوله تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾[النمل: ١٤]، وإنّمـا يكـون دافعه إلى ذلك هـو إرادة التفـرّد والظهور بصورة متميّزة، أو التمرّد عـلى عقائد المجتمع وكراهية التديّن، أو التهرّب من المسـؤوليّات التي تفرضها عليه تبعيّته للدِّين لأنّه يريد أن يعيش الترف واللّـذة، أو محابـاةً لبعض الأصدقاء، أو من أجل التكسّـب والارتزاق فيتّخذ الإلحاد وسيلة لتحقيق الأهداف الماديّة وجمع المال، أو نتيجة ضعف القدرة على التعامل مع أزمة عاطفيّة حادّة، فيشعر بالسخط تجاه اللـه, تعالى, لأنّه -من وجهة نظره- تخلّى عنـه... أو غيرها من الدوافع والعوامـل، ويكون إنكاره لوجود الله, تعالى, فقط في اللفظ واللسـان مـن دون القلب والجنان، أي أنّ إنكاره لوجـود الله, تعالى, غير منبثق مـن المعرفة العقليّة المُسـتدَلة بل حتى التقليديّـة أو التصديق القلبيّ، فلو شُـقَّ عن عقله وقلبـه لعُثِر على الاعتقاد باللـه, تعالى, مجبولاً في خلايا دماغه وشرايين قلبه، ولكنّه يتصرَّف كملحد في الحياة عامّة، وإن كان أحيانًا يُظهِر إيمانه بالله, تعالى, بين حين وآخر، خصوصًا في تلك

المواقـف التي يقع فيها تحت ضغط الاسـتفزاز من قِبل الآخرين حول عقيدة الألوهية، أو بدافع نداء الحاجة أو الإحساس بالخوف أو غيرها من العوامل النفسيّة التي تجعله يشعر بالانكسار والضعف، فيلجأ إلى الله,تعالى، فعادة يصعب على الإنسـان كتم هذا السرّ في صندوق قلبه عـلى نحوٍ مغلق ومحكم ودائمًـا، فـ«ما أضمر أحدٌ شـيئًا إلاّ ظهر في فلتات لسـانه وصفحـات وجهه»[1]، كما ورد عن أمـير المؤمنين عليّ عليه السّلام.

وهناك بعض الشـباب على النقيض من ذلـك، فإنّه يُخفي إلحاده تحت عباءة الإيمان بالله, تعالى, لتحقيق بعض الأغراض الدنيوية والحفاظ على مصالحـه التـي تقتضي ذلك، فهـو يُنكِر الله تعالى في قلبـه، ولكنه يؤمن بلسـانه، كحال المنافقين في زمان رسـول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فهذا الشـخص يصدق عليه أنّه منافـق واقعًا، ﴿**قَالُوا آمَنَّـا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ**﴾[المائدة: ٤١]، ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾[البقرة: ٨].

وبهذا يتبيّن أنّه يمكن افتراض الإلحاد على أقسام:

**١. الملحـد قلبًا وقالبًـا:** وهو المعتقد بعدم وجود اللـه, تعالى, في قلبه وينطق بها لسانه.

---

١ - الشريف الرضي، نهج البلاغة، الحكمة: ٢٦.

**٢. الملحـد قلبًا لا قالبًـا:** وهو المعتقد بعدم وجود الله,, تعالى في قلبه، ويظهر بلسانه خلاف ذلك.

**٣. الملحـد قالبًا لا قلبًا:** وهو المعتقـد بوجود الله في قلبه، ولكنه يظهر بلسانه خلاف ذلك.

## ◂ المبحث الثاني: المقدِّمات المنطقيَّة لتحليل مفهوم الإلحاد

الإلحـاد اصطلاحًا مفهوم فلسـفيّ، لأنّه موقف مـن الوجود، أي وجود الله,تعـالى، وتحليله وتشريحه على نحو يرفع الغمـوض عنه، يبتني على مجموعـة مـن المقدِّمـات المنطقيَّة، التـي نعرضها على نحوٍ مُبسَّـط مع النـماذج والأمثلـة. بحيث يتمكّـن القارئ بعض مطالعة هـذه المقدِّمات وتطبيقهـا على مسـألة الإلحاد -كـما في المبحث الثالث- مـن أن يناقش الملحـد ويحـاصره في الدائرة المنطقيَّة، ويحرجـه في تحديد موقعه على خريطة المعرفة بالوجود والله, تعالى.

### ● أوّلًا: أقسام الانكشاف المعرفيّ في المنطق:

يجد الإنسان نفسه أمام مواقف عدّة تجاه أيِّ سؤال يطرحه على نفسه أو يُطرَح عليه:

**أ. الجهل واللامعرفة:**

■ **الأوّل:** الجهل واللامعرفة، بمعنى عدم معرفة الجواب، فالنسبة المئويّة رياضيًّا للكشف عن الشيء هي صفر.

كما لو سُـئِل شخصٌ: ما هو مجموع زوايا المثلث؟ أو ما هي درجة كلّ زاوية من زوايا مثلث متساوي الأضلاع؟

فيقول: لا أعلم، لا أعرف، لا أدري...

فهو يجهل أنّ مجموع زوايا المثلّث يساوي: ١٨٠°، ويجهل أنّ كلّ زاوية من مثلث متساوي الأضلاع هي: ٦٠°.

وكما لو سُـئِل شابٌّ مُلحِد: ما معنى واجب الوجود أو بسيط الحقيقة أو علّة العلل في الفلسفة؟ فيجيب: لا أعرف.

**ب. الاحتمال والفرضيّة:**

■ **والثـانيّ:** الاحتـمال، وهو كلّ جواب تكون نسـبته المئويّة رياضيًّا ما دون ٥٠ ٪.

كما لو سُئِل طبيب نسائيّ: ما هي نسبة حدوث الحمل قبل الإباضة بـ ٣ أيام؟ فيجيب: ٢٧ ٪ -مثلاً-.

وكما لو سُئِل شابٌّ ملحد متحيّر: هل تؤمن بوجود مُصمِّم ذكيّ للكون؟ فيجيب: وجود الصانع فرضيّة مُحتملَة، ولكن بنسبة مئويّة ضئيلة جدًّا.

**ت. الشكّ وتعادل النسبة:**

■ **والثالث:** الشـكّ، وهو عبارة عن تعادل النسبة المئويّة للإثبات والنفيّ

في الذهــن البشريّ ٥٠٪ / ٥٠ ٪، بحيث لا يُرجِّح الإنســان أيّ طرف من الإيجاب والسّلب على الآخر بأيّ نسبة مئويّة، فلا طرف الإثبات أولى من النفيّ، ولا العكس.

كما لو سُــئِل أحد علماء الفقه المقارَن: هل الملحد في الفقه الإسلاميّ محكوم بالطهارة أم النجاسة؟

فيجيب: يوجد رأيان: الأول: القول بالطّهارة. والثاني: القول بالنجاسة.

ثم إذا سُئل ثانية: شيخنا العزيز، أيُّ القولين تُرجِّح؟

فيجيب: لم أبحث في مدارك المسألة وأدلّتها، فلا أستطيع أن أرجّح قولاً على الآخر.

فهنا تتعادل نسبتا القول بنجاسة الملحد وطهارته في ذهن المُجيب، فهو لا يملك دليلاً على الطهارة، ولا دليلاً على النجاسة.

وكما لو سُــئِل أحد الشّــباب اللاأدريّــين أو اللاأباليّــين -غير المكترث بالبحــث عن الحقيقة والأديان-: هل هذا الكــون له خالق وصانع أم وُجِد صدفة؟

فيجيب اللاأدريّ: أنا في شكٍّ من الأمر، لا أدري، يمكن أن يكون هناك صانع، ويمكن أن لا يكون.

ويجيب اللااكتراثيّ: هناك أشــخاص يؤمنون بالله، وهناك أشــخاص لا يؤمنون به، وأنا لا أكترث للموضوع، ولم أبحث عنه، فلا أستطيع أن أرجح رأي أيٍّ منهما على الآخر.

**ث. الظنّ والاطمئنان:**

■ **والرابع:** هو الظنّ أو الاطمئنان، وهو الجواب الذي يقوم على ترجيح أحد الطرفين على الآخر بنسبة مئوية تزيد عن الـ ٥٠٪، ولكنها تبقى دون الـ ١٠٠٪.

كما لو سُئِل أحد علماء تفسير القرآن الكريم عن قوله تعالى: ﴿**لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ**﴾[يس: ٣٥]؟

فيجيب: يا بُنيّ، هناك آراء عدّة في قوله تعالى: (وما عملته أيديهم): الأوّل: أنّ «ما» نافية، وهو الّذي نرجّحه، فيكون المعنى: ليأكلوا من ثمره الّذي اختصّ الله, تعالى, بخلقه ولم تعمله أيديهم، لأنّه, تعالى, لم يستعن بهم حتى يشاركوه في تدبير الأرزاق، فما بالهم لا يشكرون الله, تعالى؟!!

وهناك رأي آخر مُحتمَل أيضًا: أن تكون «ما» موصولة بمعنى: الّذي، معطوفة على «ثمره»، والمعنى: ليأكلوا من ثمره ومن الّذي عملته أيديهم من ثمره كالخلّ والدبس المأخوذَيْن من التمر والعنب وغير ذلك[1].

فأقصى ما يمكن أن يصل إليه المفسِّر في الآية هو الظنّ بالمعنى المراد لله, تعالى دون أن يصل إلى مرتبة اليقين، وهذا الظنّ يُصطلح عليه في علم أصول الفقه: «الظهور»، هو حجّة شرعيّة معتمدة في فهم كلام الله, تعالى.

**ج. اليقين والعلم الجازم:**

■ **والخامس:** هو اليقين أو القطع أو الجزم أو العلم...، وهو الجواب

---

١ - انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٧، ص٨٧.

الـذي يقـوم على الكاشـفيّة التامّة التي لا تحتمل أي خـلاف مهما كانت درجتـه ضيئلة، فالنسـبة المئويّة رياضيًّا للانكشـاف هـي ١٠٠٪، فيكون الطرف الآخر هو صفر.

كما لو سُئِل شخص عراقيّ: هل نهر الفرات مالح أم عذب؟

يجيب: قطعًا عذب.

أو سُـئِل مثـلاً: هل مقـام أمير المؤمنين عـلي عليه السّـلام في النجف الأشرف أم في كربلاء المقدّسة؟

فيجيب: يقينًا في النجف الأشرف.

وهـذا حال المؤمـن بوجود الله, تعـالى, غالبًا، فإنّه متيقّـن من وجوده, تعـالى، على نحو لا يخالـط يقينه أي احتمال بالعـدم، فلديه يقين مركّب بوجود الله,تعالى، أي اعتقاد بقضيّتين:

**الأولى:** إنّ الله, تعالى، موجود.

**والثانية:** يستحيل أن لا يكون الله، تعالى، موجودًا.

## ● ثانيًا: انقسام القضايا إلى بديهيَّة ونظرية مُستدَلة

إنّ أيَّ قضية تُعرَض على الذهن البشريّ، تُصنَّف على نحوين:

**١. الأوّل:** القضايا البديهيَّة والضروريّة التي لا تحتاج إلى دليل

وهي القضايا التي لا يحتاج الاعتقاد بها إلى الاسـتدلال وبذل أيّ جهد عقليّ. مثل القضايا الحسـيّة، فإذا كان ثمة شـخصان يقفان في وسط نهار

مشـمس حارٍّ، تتربّع فيه الشـمس على عرش السـماء، فلن يسأل أحدهما الآخر -مع سـلامة حاسّـة النظر- هل الشـمس موجودة؟ وما الدليل على ذلك؟ فإنّه هذا السـؤال ضرب من الجنون والحمق، لأنّ وجود الشـمس حسيٌّ لا يحتاج إلى دليل.

وكذلك الحالات الوجدانيّة التي يعيشـها الإنسـان مع نفسه، فهو يشعر بالخـوف أو الجوع أو التعب، ولا يُطالِب نفسـه بالدليل على كونه خائفًا، فإنّ اعتقاده بأنّه خائف في هذه اللحظة أو جائع بديهيّ لا يحتاج إلى دليل.

وعلى كلّ حال، تنقسم القضايا البديهيَّة إلى قسمين أيضًا:

**١,١. القسـم الأوّل:** قضايا بديهيَّة ليسـت فقط لا تحتاج إلى دليل، بل يسـتحيل إقامة الدليل عليها أصلاً، مثل: قانون التناقض، فأيّ عقل بشري فطريّ سليم لم يُلوَّث بالشُّبهات والتربية الفاسدة، إذا سألته: هل يمكن أن تكون أنتَ موجودًا ولا موجود في زمان واحد في مكان واحد؟ سـيجيب: قطعًا يسـتحيل أن أكون موجودًا في النجـف الأشرف ولا موجودًا فيها بل في مكان آخر كبغداد في الوقت عينه.

**فمعنـى النقيضين:** السـلب والإيجـاب، لأنّ نقيـض كلّ شيء هو رفعه وسلبه، فالاعتقاد بأنّ اجتماع النقيضين على شيء واحد محال، أمر بديهيٌّ لا يحتـاج إلى دليل ويسـتحيل إقامـة الدليل عليـه، لأنّ أي دليل يريد أن يسـتخدمه الإنسـان لإثبات صحّة وصدق هذه القضية هو يحتاج إليها في الرتبة السـابقة، وإلّا لصح الدليل ونقيضه، فما المشكلة في أن تكون هذه

القضية صادقة وكاذبة في الوقت نفسه؟!! إلّا إذا افترضنا سابقًا التسليم بأنّ الصدق والكذب لا يجتمعان على شيء واحد في الوقت نفسه، وهذا هو قانون التناقض، إذًا قانون التناقض يسلِّم به الإنسان قبل الاعتقاد بأيّ قانون آخر، والإيمان بصدق أي قضية مع كذب نقيضها الذي يقابلها، يحتاج إلى الاعتقاد بهذا القانون، وإلّا لم يكن للإيمان بصدق القضية أي معنى.

**١ , ٢. والقسم الثاني:** قضايا بديهيَّة، لا تحتاج إلى دليل، لكن يمكن إقامة الدليل عليها، مثل القضايا الفطريّة بالاصطلاح المنطقي، وهي قضايا بديهيَّة يصدّق بها العقل بوساطة دليل خاصّ، ولكن هذا الدليل دائمًا ما يكون مقترنًا بها، بحيث لا يغيب عن الذهن البشريّ كي يحتاج إلى بذل جهد فكريّ وكسب وطلب.

مثال: لو سأل أستاذ مادّة الرياضيّات تلميذًا في المدرسة : ما هي نسبة الـ ٢ إلى العشرة؟

يجيب: عدد ٢ نسبته ٥/١ من ١٠، أي الاثنين هي خمس العشرة.

ولو سأله: ما الدليل؟

يجيب التلميذ: أستاذ، هذه مسألة رياضيّة بديهيَّة، لا تحتاج إلى دليل.

إنّ ذهن التلميذ اشتغل ضمن عمليّة استدلال مستبطنة ولكنه لم يلتفت إليها، هنا يأتي دور أستاذ الرياضيّات ليساعده على معرفة الدليل. فيمكن لأستاذ الرياضيّات أن يقيم دليلاً على هذه القضيّة الرياضيّة، على الشكل

التالي:

الاثنين عدد قد انقسمت العشرة إليه وإلى أربعة أقسام أخرى كلٌّ منها يساويه.

وكلُّ ما ينقسم عدد إليه وإلى أربعة أقسام أخرى كلٌّ منها يساويه فهو خُمُس ذلك العدد. فالاثنان خمس العشرة.

ومثل هذا البرهان حاضر في الذهن، لا يحتاج إلى كسب ونظر، ولكن قد يغفل عنه ذهن التلميذ. وهو برهان يجري في كلّ نسبةِ عدد إلى آخر، غير أنّ هذه النسب يختلف بعضها عن بعض في سرعة مبادرة الذهن إلى المطلوب وعدمها بسبب قلة الأعداد وزيادتها، أو بسبب عادة الإنسان على التفكير فيها وعدمه، فإنك ترى الفرق واضحًا في سرعة انتقال الذّهن بين نسبة ٢ إلى ٤ وبين نسبة ١٣ إلى ٢٦ مع أنّ النسبة واحدة، وهي النصف، أو بين نسبة ٣ إلى ١٢ وبين نسبة ١٧ إلى ٦٨ مع أنّ النسبة واحدة هي الربع... وهكذا[1].

وعلى كلّ حال، إذا كانت القضيّة بديهيَّة هذا لا يعني ضرورة التصديق بها عند كلّ الأذهان البشريّة، بل هناك بعض البشر قد ينكرون البديهيّات لفظًا أو واقعًا، إمّا لبلادة الذّهن، وإمّا لشبهة علميّة أو عقديَّة، وإمّا لتربية منحرفة، أو العيش في بيئة فاسدة ﴿**قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**

١ - انظر: المظفر، المنطق، ص٣٣٦-٣٣٧.

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٧٠]، وإمّا لمرض نفسيّ أو أخلاقيّ كالحسد والظلم والعلو... كما يخبرنا القرآن الكريم في مواضع عدّة أنّ هناك صنفًا من الناس ينكر الحقّ ويجحد به بعد معرفته والتيقّن منه، ولا يكون هذا الإنكار إلّا باللسان فقط، مع أنّ القلب معقود على شيء آخر، فهناك تصديق ذهنيّ، وإيمان قلبيّ، وإنكار في اللسان.

ومن النماذج على ذلك في القرآن الكريم، من دون أن ندخل في تفاصيل الشرح، قوله تعالى:

- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾[البقرة: ٨٩].
- ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: ١٤].

هل قضية: «الله موجود» بديهيَّة أم نظريّة؟

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ١٠].

طبعًا الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى شيء من الشرح والتوضيح، نكتفي هنا بالإشارة السريعة، ونؤجّل دراسة المسألة إلى بعض الأبحاث اللاحقة، فنحن نعتقد أنّ الإيمان بالله, تعالى, بديهيّ لا يحتاج إلى دليل، فكلّ صاحب عقل سليم إذا تأمّل في أعماق نفسه، وفي الظواهر الكونيّة، يصل إلى نتيجة مفادها أنّ الصانع الحكيم والخالق المُتقِن موجود، فهو على كلّ شيء وفي كلّ شيء مشهود، ففي كلّ شيء له تعالى آية تدلّ عليه.

وكما ورد في الدعاء المنسوب إلى الإمام الحسين, عليه السلام, في يوم عرفة: « كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المُظهِر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟! عميت عين لا تراك».

ولذا يقول العلامة الطباطبائي: «... يظهر للمتأمل أنّ أصل وجود الواجب بالذات ضروريٌّ عند الإنسان والبراهين المُثبِتة له تنبيهات بالحقيقة»[1].

فالاعتقاد بوجود الله, تعالى, لا يحتاج إلى دليل، لأنّه بديهي، بل يحتاج إلى التنبيه، والفرق بين الدليل والتنبيه، أنّ الدليل نعتمده -كما سيأتي- لإثبات شيء غائب عن الذهن غير حاضر فيه، أما التنبيه فنعتمده لشيء حاضر في الذهن لكن الإنسان لسبب أو آخر غافل عنه، فالدليل فرع الجهل بشيء مفقود، أما التنبيه فرع الغفلة عن شيء موجود.

فالإيمان بوجود الله, تعالى, مجبول في داخل كلّ ملحد، ولكنه ينكره -إن صحّ إنكاره واقعًا- نتيجة التربية الفاسدة، أو الشّبهات الفكريّة، أو البيئة المنحرفة، أو المرض النفسيّ كالظلم والعلو والحسد، أو التهرّب من المسؤليّات الدينيّة، أو لتحصيل الأهداف الماديّة ليشتري بإلحاده ثمنًا قليلاً... إلخ من العوامل.

---

١ - صدر المتألهين الشيرازي، الحكمة المتعالية، مع تعليقات العلامة الطباطبائي، ج٦، ص١٤.

**القسم الثاني: القضايا النظريّة المُستدَلة:**

لو سأل شخص متخصّص في الفيزياء إنساناً بسيطًا عن معادلة أينشتاين التالية: $E=mc^2$ ، ماذا تعني؟ وما هو دليلها؟ لن يعرف الإجابة.

ولكن هذه المعادلة تعني: أنّ الطاقة (energy (E تساوي الكتلة (mass (m ، مضروبة في مربع سرعة الضوء (The Speed of Light Constant (c

ولكنها معادلة فيزيائيّة تحتاج إلى دليل.

وكذلك إثبات كون مجموع زوايا المثلث تساوي ١٨٠ درجة، يحتاج إلى برهان رياضيّ.

وهكذا في أي علم من العلوم، تحتاج المعادلات عادة إلى برهان ودليل مُثبِت.

فالقضايا النظريّة: هي قضايا يعتقد بها الإنسان بعد بذل جهد عقليّ وعمليّة استدلال، أي هي القضايا التي يحتاج العقل البشريّ للاعتقاد بصحّتها إلى البرهنة. وقد أدّبنا المنطق القرآني على أن البرهان هو معيار الصدق، يقول تعالى: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[البقرة: ١١١].

فالأصل عند الذهن البشريّ مقابل أي قضيّة نظريّة هي أن يعيش حال الشكّ وتعادل نسبة الإثبات والنفي، فلا يسارع إلى الإثبات بلا دليل، ولا إلى النفي بلا دليل، لأنّ الخروج عن حدّ التعادل ونسبة الوسط -أي من الـ ٥٠ ٪- إلى طرف الإثبات يحتاج إلى دليل، وكذلك الخروج عن الـ ٥٠ ٪ إلى طرف النفي يحتاج إلى دليل. ولا يكفي عدم الدليل على الإثبات، ليكون ذلك دليلاً على

النفي. وكذلك لا يكفي عدم الدليل على النفي، ليكون دليلاً على الإثبات.

فمثـلاً لو طرحنا هذا السـؤال: هل هنـاك كائنات فضائيّـة ذكيّة وعاقلة تسكن في مجرّة ما في هذا الكون الواسع والفسيح؟

الجواب الأساس على هذا السؤال هو: تعادل النسبة الرياضيّة في الذهن البـشريّ ٥٠ ٪/ ٥٠ ٪، لأنّ إثبات وجود كائنات فضائيّة حيّة خارج كوكبنا أو منظومتنـا الشمسـيّة أو مجرّتنا يحتـاج إلى قرائن وشـواهد وأدلّة، وإذا لم يسـتطع الأحياء الفلكيّ Astrobiology مثـلاً أن يُثبت وجود الكائنات الفضائيّة الحيّة الذكيّة، فهذا لا يعني عدم وجودها، لأنّ عدم الوجدان ليس دليـلاً على عدم الوجود، إذ قد تكون موجـودة في مكان ما، لم تصل إليه أجهزة الإنسـان وأدواته. كذلك أيضًا، إنّ نفي وجود الكائنات الفضائيّة في مكان ما من هذا العالم، يحتاج إلى دليل.

ولا يكفي فقدان الدليل -حتى هذه اللحظة- على وجودها لنفي وجودها، إذ لعلّه في المستقبل تكتشف الإنسانيَّة وجود مثل هذه الكائنات، فالإنسان الموضوعـي الذي يفكّـر بطريقة علميّة يكـون موقفه هـو تعليق الحكم والعيـش في دائرة الشـكّ المنهجيّ لا الوسـواسيّ المـرضيّ[1]، فلا يُنكِر

١ - الفرق بين الشكّ المنهجي والشك المرضيّ الوسواسيّ: أنّ الأول هو حالة طبيعية تجاه القضايا التي لا يوجد دليل على إثباتها أو نفيها، وهو عادة الركن الذي يلجأ إليه الباحث عند فقدان الدليل، فيحتفظ بشكّه إلى أن يقوم البرهان الواضح، أمّا الشك الثاني فهو حالة مرضية، فحتى مع وجود الأدلة يبقى الإنسان يعيش في دائرة الشكّ، فهو شخصية مترددة متحيّرة مضطربة.

وجـود كائنات فضائيّة، لأنّه يمكن أن تكون موجودة، مع عدم توفّر الدليل على نفي ذلك.

فعدم الدليل ليس دليلاً على العدم، بمعنى أنّ فقدان الدليل على قضية، لا يعنـي أنّه ينبغي إنكارها ورفضها، بل أن يتوقّف في المسـألة، ولا يكون هناك موقف إيجابي أو سلبي منها.

عـن الإمام الصادق عليه السّـلام: « لو أنّ العبـاد إذا جهلوا وقفوا، ولم يجحدوا، لم يكفروا»[1].

## المبحث الثالث:
## المواقف الفلسفيّة المتعدّدة من سؤال: هل الله موجود؟

### ● أوّلاً: الاعتقاد فرع المعرفة:

انطلاقًا من المقدِّمات المنطقيَّة التي عرضناها سـابقًا، نصل إلى المحور الأسـاس الذي نـودّ معالجته، وهـو أنّه يمكن عرض مواقـف مختلفة في الإجابة عن سؤال: هل الله موجود؟

ونعيـد التذكير بأنّ كلّ قضيّة نظريّـة تحتمل ابتداءً الصدق والكذب، أي تتكافأ فيها قيمتا الصدق والكذب بنحو التساوي، فلا ترجح إحداهما على

١- الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٨٨، ح١٩.

الأخـرى، وهذا يعني أنّ الموقف المبدئي من سـؤال: هـل الله موجود؟ (على افتراض كون الاعتقاد بقضية: «الله موجود» هو نظريّ وليس بديهيًّا) هو الشـكّ، بمعنى تعادل نسـبة الإثبات والنفي لدى الذهن البشريّ، ولا يترجّـح أحـد الطرفين -وجود اللـه تعالى أو عدم وجـود الله تعالى- على الآخر إلّا بدليل، ولا يكفي عدم الدليل على وجود الله تعالى أو المناقشـة في أدلّـة وجود الله تعـالى لإنكار وجوده، بل الإنـكار يحتاج -أيضًا- إلى أدلة وبراهين.

وهنـاك مقدِّمـة أخرى ينبغـي ذكرها في المقـام، هـي أنّ التصديق فرع التصـور والاعتقـاد فرع المعرفـة، بمعنى أنّه لا يمكن للإنسـان أن يحكم على شيء إثباتًا أو نفيًـا، إلّا بعد تصوّر الموضوع والمحمول، فالمجهول المطلق لا يمكن أن يصدر أي حكم عليه أبدًا.

فلو سُـئِل أحد العلماء مثلاً: هـل المارْماهي والجِرّيّ حلال أم حرام؟ فإنّه لن يجيب بـ: نعم، أو: لا، لأنّه مجهول، فلا يمكنه أن يعطي حكمًا، لكن بعـد معرفة معنـى «المارماهي»، يمكنه إصدار حكـم، فإذا تصوّر معنى المارماهي، وأنّه نوع من السّـمك ليس له فَلْس، فيجيب: لا يحلّ أكله.

وبنـاء عليه، نفترض أنّ معنى «الله» في السـؤال، هـو: الموجود الّذي صنع هذا العالم المدهش العجيب وأبدع هذا الكون الجميل المُتقَن من العدم.

## ● ثانيًا: بين الإثبات والنفي والشكّ:

### أ. التديّن والإيمان بالله theism:

### ب. والربوبيّة Deism:

■ إمّـا أن يقوم دليل على إثبات وجـود الله,تعالى، فتصدق قضية: «الله موجـود»، ويكـذب نقيضهـا، لأنّ النقيضـين لا يجتمعان -كـما ذكرنا-، فيسـتحيل عقـلاً أن تصـدق هـذه القضية مع صـدق نقيضهـا: «الله غير موجود»، وهذا هو موقف الإلهيّين والربوبيّين.

**الربوبيّة Deism**

الربوبيّة اتجاه فلسـفيّ خاصّ يمكن تلخيـص وجهة نظره ضمن النقاط التالية:

**أولًا:** تعتقد أنّ الإنسـان يمكنه معرفة المهندس العظيم للكون المتعالي عن طريق العقل ومراقبة ما في الطبيعة من إتقان وذكاء ودقّة تنظيم...

**وثانيًـا:** تعتقـد أنّ المصمّـم الـذكيّ أو المهندس العظيـم للكون خلقه ضمـن قوانين فيزيائية وأحيائيّة و... خاصّـة، وانتهت مهمّة الإله عند هذا الحـدّ، وتركه يعمـل وفقًا للقوانين الفيزيائيّة والطبيعيّـة التي خلقها، فكما أنّ السـاعة تحتاج إلى الصانع في صنعها, ولكنها تسـتغني عنه بعد ذلك، بحيـث لا يضرها وفاة الصانع، كذلـك فإنّ المهندس العظيم أبدع الوجود

ضمن قوانين خاصّة، والكون يعمل ضمن تلك القوانين، بلا حاجة إلى يد المهنـدس الصانع بعد ذلك، فالكون يحتاج إلى المهندس حدوثًا لا بقاءً. وقد عبّر عن ذلك توماس كارليل بقوله: «إله الربوبيِّين إله غائب، يقعد بلا عمل منذ السبت الأوّل خارج أطراف كونه، ليراه يعمل»[١].

**والخلاصة:** ينكرون فكرة اسـتمرار تدخل اللـه, تعالى, في الكون وحياة الإنسان والتاريخ البشريّ والمدد الغيبيّ...

**وثالثًا:** ينكرون الوحي والنبوة، ولا يعتقدون بأن الله, تعالى, عرّف نفسـه للبشريّـة عبر الكتب السـماويّة، فالمهندس العظيـم والمصمّم الذكيّ لم يرسـل الرسـل ولا الأنبياء ولم يتّصل بالبشر ليأمرهم بشيء أو ينهاهم عن شيء، فالأديـان من اخـتراع الخيال البشريّ، فالإنسـان يتمكّـن بعقله أن يستقل عن الأديان ولا يحتاج إليها.

**ورابعًـا:** يختلف الربوبيّون حـول عالم ما بعد المـوت، وخلود الروح، فبعضهم يعتقد أنّ الموت هو نهاية حياة الإنسان، وأنّه إن كان ثمّة ثواب أو عقاب على حسـن الأفعال وقبحها، فإنّما ينال الإنسـان استحقاقه وجزاءه في هذا العالم، وبعضهم الآخر يعتقد بأنّه لا يمكن إنكار وجود شكل آخر من الحياة بعد الموت، ولا يسـتطيع العقل البشريّ أن يحكم حكمًا جازمًا في هذا المجال.

---

١ - انظر: طلعت، العودة إلى الإيمان، ص٤٣.

وبنـاء عليه، الربوبيّ يشـمله الملحد بالمعنى القـرآني، لأنّه ينطبق عليه قولـه تعـالى: ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِـدُونَ فِي أَسْـمَائِهِ**﴾[الأعراف: ١٨٠]، حيث يشمل إنكار استمرار تدخّل الله, تعالى, في الكون والحياة الإنسانيَّة بالخلـق والإحياء والإماتـة والتدبير والرزق... وكذلك قولـه تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا**﴾[فصلـت: ٤٠]، ومن ضمنها الآيات الوحيانيّة والنبويّة.

**ت. الإلحاد atheism:**

■ وإمـا أن يقوم دليل على نفي وجـود الله,تعالى، فتصدق قضية: «الله غير موجود»، وتُكافئ في قيمتها المنطقيَّة: «الله معدوم»، ويكذب نقيضها أي: الله موجود، وهذا هو موقف الملحدين والزنادقة والدهريّين.

**ث. الشكوكيّة واللاأدريّة Agnosticism:**

■ وإما ألَّا يقوم دليل عى الإثبات، ولا على النفي، فتبقى القضية متكافأة الطرفين، ويتمّ تعليق الحكم، والشـكّ، وهو موقف اللاأدريّين. فاللاأدري هو الشّـخص الذي لا يملـك دليلاً على وجود اللـه، وفي الوقت عينه لا يملـك دليلاً على النفي، فهـو لا يقول: «الله غير موجـود»، بل يقول: لا أعلم بأنّ الله موجود.

فاللاأدريّة اتجاه فلسـفيّ شكوكيّ موقفه هو تعليق الحكم تجاه القضايا

المتعلّقة بما وراء الطبيعة، دون إصدار حكم بالإثبات أو النفي. فاللاأدري يعتقد أنّه لا يمكن معرفة فيما إذا كان هناك خالق لهذا الكون أو لا، فهو لا يُثبت وجود الله ولا ينفي وجوده تعالى.

يقول برتراند راسل: «يعتقد اللاأدري أنّه من المستحيل معرفة حقيقة بعض القضايا؛ مثل: الإله, أو الحياة الآخرة بعد الموت, مثل التي تؤمن بها المسيحيّة وبعض الأديان الأخرى»[١].

وبذلك يفترق اللاأدريّ عن المتديّن المؤمن بالله أو الربوبيّ لأنّهما من المُثبتين، ويختلف عن الملحد المنكر لوجود الله لأنّه من النافين.

مثلاً، يقول تشارلز داروين إنّه لم يكن ملحدًا أبدًا، بمعنى إنكار وجود إله، وإذا كان ثمة وصف لحالتي العقليّة فهو: «لاأدري»[٢].

وقد تبنى الفيلسوف البريطاني برتراند رسل هذا الموقف، حيث يقول: «كفيلسوف، إذا كنت أخاطب جمهورًا فلسفيًّا بحتًا، ينبغي عليّ أن أصف نفسي بأنّي: «لاأدري»؛ إذْ إنّني لا أعتقد أنّ هناك حجّة قاطعة من قِبَل أيّ شخصٍ تُثبِت أنّه ليس هناك إله. ومن ناحية أخرى، إذا كنت أريد إيصال الفكرة الصحيحة إلى الرَّجل العاديّ في الشّارع، أعتقد أنّه ينبغي عليّ القول

1 - Bertrand Russell (2009), The Basic Writings of Bertrand Russell, p557

2 - Mary Everest Boole ,What did Darwin believe?
https://web.archive.org/web/20090225124103/http://www.darwinproject.ac.uk/content/view/130125//

بأنّني مُلحد، لأنني حينها سأخبره بأنني غير قادر على إثبات عدم وجود إله»[1]. وبهذا تتميّز اللاأدرية كاتجاه ومنهج تفكير تجاه قضايا الألوهية، عن الشك المنهجي الذّي يعيش في دائرة البحث من أجل الوصول إلى الحقيقة، فالثاني يقول يمكن للإنسان أن يتثبت من وجود الله تعالى من عدمه بالفحص عن الأدلة، فالشكّ عنده بداية الانطلاق على طريق الوصول إلى اليقين، أمّا «اللاأدري»، فهو قد حدّد موقفه الفلسفي والمنطقي والمعرفي بأنّه لا يمكن معرفة وجود إله من عدمه، ويقفل باب البحث، فيتحول هذا الموقف الفلسفي من الوجود إلى حالة مرضيّة معرفيًّا.

يقول فيلسوف اللاأدريّة توماس هكسلي مُعبرًّا عن موقفه المنطقيّ: «عندما وصلت لمرحلة النضج الفكري، وبدأت أتساءل عمّا إذا كنت ملحدًا؟ أم مؤمنًا بالكون وخالقه؟ ماديًّا أم مثاليًّا؟ مسيحيًّا أم مفكّرًا حرًّا؟؛ اكتشفت أنّه كلّما تعلمت وتأملت كلّما كانت الإجابة أبعد؛ حتى استنتجت في نهاية المطاف أنّه ليس لدي مهارة أو أيّ جزء من كلّ تلك المسميات إلّا الأخيرة [مفكّرًا حرًّا]. إنّ الشيء الوحيد الذي يتفق عليه معظم هؤلاء الناس الطيبون هو ذات الشيء الذي أختلف عليه معهم. لقد كانوا متأكدين من بلوغهم مرحلة الغنوصيّة، وأنهم قد نجحوا تقريبًا في حلّ مشكلة الوجود؛ بينما كنت متأكّدًا نوعًا ما من أنيّ قد فشلت في تحقيقه، وكنت على قناعة قوية أنّها مسألة

١ - رسل، لماذا لست مسيحيًّا، ص٢٠٣-٢٠٤.

لا يمكن حلّها... وبذلك تأملت واخترعت ما رأيته عنوانًا مناسبًا يحمل اسم: لاأدري»[١]. ويبينّ روبرت إينجرسـول أيضًا موقفه اللاأدريّ بقوله: «هل هناك قوة خارقة للطبيعة وعقل تعسفي وإله وإرادة عليا تُحرّك الأمواج والتيارات في العالم، والتي تقدسها كلّ الأسباب؟ أنا لا أنكر ولا أعرف».

## اللاأدريّة: أرقام وإحصاءات:

نشرت صحيفة فاينانشال تايمز[٢] عام ٢٠٠٦م دراسة أجريت في الولايات المتحدة وخمسة دول أوروبية، أظهرت أنّ نسبة اللاأدرية على الشكل التالي:

| الدولة | نسـبةاللاأدريّين |
|---|---|
| الولايات المتحدة | % 14 |
| إيطاليا | % 20 |
| ألمانيا | % 25 |
| أسبانيا | % 30 |
| فرنسا | % 32 |
| بريطانيا | % 35 |

1 - Huxley, Thomas. Collected Essays, Science and Christian Tradition, pp. 237–239.

2 - Religious Views and Beliefs Vary Greatly by Country, According to the Latest Financial Times/Harris Poll. Financial Times/Harris Interactive,2006.

ووفقًا للمكتب الأسترالي للإحصاء[1] عام ٢٠١١، هناك نسبة ٢٢ ٪ من الأستراليين بلا دين، وهي فئة تشمل اللاأدريين.

ونشرت الموسوعة البريطانية عام ٢٠١٠ دراسة أظهرت أن نسبة اللاأدريين في العالم: ٩,٦ ٪.

وفي عام ٢٠١٢، قامت الشبكة العالمية المستقلة ومؤسسة غالوب الدولية باستبيان، كانت نتيجته:

| | |
|---|---|
| **أجاب 59 %** | **أنّهم متديّنون** |
| **أجاب 23 %** | **أنّهم لادينيّون** |
| **أجاب 13 %** | **أنّهم ملحدون عن اقتناع** |

وترتفع نسبة الملحدين واللاأدريّين في اليابان[2]، فإنّها بلغت ٦٥٪، أمّا في فيتنام فقد بلغت ٨١ ٪.

● **ثالثًا: الفلسفة الوضعيّة: سؤال: هل الله موجود؟ فارغ المعنى:**

هناك مدرسة فلسفيّة منطقية في أوروبا كان لها حضورٌ قويّ سابقًا، وما زالت تتمتّع بقوة حضور في أوساط الملحدين على مستوى منهجية

1 - http://www.abs.gov.au/ausstats/abs@.nsf/lookup/2071.

2- Zuckerman, Phil (2007). The Cambridge Companion to Atheism. p. 56

التفكير، وهي: «الوضعيّة المنطقيَّة»[١].

لا ينسجم موقف هذه المدرسة مع أيٍّ من المواقف الثلاثة السابقة، لأنّ رؤيتها المنطقيَّة والمعرفيّة قائمة على أساس أنّ كلّ قضية لا يمكن التحقق من صدق مضمونها بوساطة الملاحظة الحسيّة فهي قضية فارغة المعنى، بل هي ليست قضية أصلاً، فهناك ثلاثة أنواع من القضايا في هذه المدرسة:

١. قضية مفهومة وعليها دليل حسيّ فعليّ. مثل القول: الطقس ماطر الآن، أو الحديد يتمدّد بالحرارة...

٢. قضية مفهومة وليس عليها دليل حسيّ فعليّ، ولكن ممكن إقامة الدليل عليها في المستقبل، بمعنى أنّه ليس هناك أي مانع عن ذلك. مثل قابلية التثبّت من وجود كائنات حيّة على كواكب أخرى.

٣. قضية ليست مفهومة ولا معنى لها أصلاً، لأنّه لا يمكن التثبت منها بوساطة الحسّ.

**الملحدون -عادة- يقولون:** إنّ قضية «الله موجود»، لها معنى مفهوم، ولكن لا مصداق لها، ولا دليل عليها.

لكن الوضعيّة المنطقيَّة تقول: إنّ قضية «الله موجود» غير مفهومة أصلاً ولا معنى لها، لأنّه لا يمكن التثبّت من صحتها بوساطة الوسائل الحسيّة، فليس هناك دليل حسيّ على وجود الله.

---

١ - انظر: سامر توفيق عجمي، الوضعية دارسة مفهومها ومنزلتها في علم المعرفة المعاصر، صص (١٦٣-٢٢٢).

يقول الشـهيد السـيد محمد باقر الصدر: «... وعلى هذا الأسـاس لو قلت: «الله موجود»، لكان بمثابة أن تقول: «ديز موجود»، فكما لا معنى لهذه الجملة، كذلك تلك، لأنّ وجود الله لا يمكن التعرّف عليه بالحس والتجربة»[١].

وأدقّ تعبـير نجده عن هذه الرؤية الفلسـفية لوجود اللـه, تعالى, ما كتبه ألفريد آير [٢] في كتابه: اللغة- الحقيقة- والمنطق: « إنّ السّمة الأساسيّة في موقـف اللاأدري Agnostic، هي أنّه يتصور أن وجود إله يمُثل «إمكانية»، بمعنى أنّه لا يوجد في تصوره أسـباب وجيهة للإيمان بوجود الله أو عدم الإيمان بوجوده.

أما السّمة الأساسـيّة في موقف الملحد atheist، فهي أنّه يأخذ بإمكانية «عدم وجود إله».

أما وجهة نظرنا [الوضعيّة المنطقيَّة]، فإننا نرى أن كلّ العبارات التي تقال عن طبيعة «الله»، هي في حقيقتها عبارات «لا معنى لها» non-sensical، ومـن ثَمَّ فـإنّ نظرتنا لهذه العبـارات لا تتطابق -بحال- مـع أيٍّ من هاتين النظرتين، ولا تقدّم دعمًا لإحداهما دون الأخرى، وإنما هي -في الحقيقة- متعارضة معهـما، لأنه إذا ما كان التقرير الذي يقول «بوجود إله» تقريرًا لا معنـى له، فإنّ تقرير الملحد الذي يقرر فيه أنّه «لا يوجد إله» هو -بالمثل- تقرير لا معنى له، طالما أنّه لا يزيد عن كونه تقرير يناقض التقرير الأول.

---

١ - انظر: الصدر، موجز في أصول الدين، ص١٢٥.
٢ -آير، اللغة الحقيقة والمنطق، ص ١١٥-١١٦.

أما فيما يتعلق بموقف اللاأدري، فنستطيع أن نقول: إنّه بالرغم من امتناعه عن تقرير «وجود إله»، أو «عدم وجود إله»، فإنّه لا ينكر أن السؤال عمّا إذا كان يوجد إله مفارق أم لا، سؤال له معنى أو سؤال أصيل. فهو لا ينكر العبارتين «يوجد إله مفارق» و «لا يوجد إله مفارق»، يعبرّان عن قضايا إحداهما صادقة بالفعل والأخرى كاذبة. فكل ما يقوله: إننا لا نملك وسائل تمكّننا أن نقرّر أيهما هي القضية الصادقة، وأيهما هي القضية الكاذبة، ومن ثَمَّ فلا يجب أن نلزم أنفسنا بإحداهما.

ولكننا قد تبيّنا كيف أن هذه العبارات لا تعبر بحال عن قضايا، مما يعني أن نستبعد - بالمثل- النزعة اللاأدرية أيضًا.

وينطبق على موقف «الملحد» ما ينطبق على موقف «الأخلاقي» فتأكيداته ليست «صحيحة» أو «غير صحيحة». فطالما لا يخبر بشيء عن العالم، فلا يمكن -من ثم- إدانته بأنّه يقول شيئًا كاذبًا أو شيئًا لا يملك عليه أدلة كافية»[1].

وستأتي مناقشة هذه الفكرة في مبحث خاصّ لاحقًا.

## ● رابعًا: الفرق بين الملحد والعَلمانيّ:

قد يلتبس على ذهن بعض الشباب التمييز بين بعض المصطلحات

١ - انظر: محمد مهران، ومحمد مدين، مقدمة في الفلسفة المعاصرة، ص٢٠٦-٢٠٧.

فيخلـط بينها، كأن يظـنّ كلّ علمانيّ هو ملحد، ولكن يجب التنبّه، إلى أنّ العلمانيّين على ثلاثة أقسام:

**أ. العلـمانيّ الملحد،** وهو الذي يدعو إلى فصل الدّين عن الحياة عامّة، انطلاقًا من اعتبار فكرة الإله خرافة وأسطورة وخيال.

**ب. العلمانيّ المتديّن،** وهو الذي يؤمن بالله, تعالى, وبالدّين، معتقدًا أنّ الدين علاقة فرديّة خاصّة بين الإنسـان وبـين الله,تعالى، فيدعو إلى فصل الدّين عن السياسة, وشؤون الحكم, وإدارة الدولة, والمجتمعات.

**ت. العلـمانيّ الربوبيّ،** وهو الذي يعتقد بوجـود إله الأكوان، وينكر إله الأديان.

وبهـذا يتبين الفرق بين الملحد والربوبيّ، فـالأوّل ينكر الإله، أمّا الثاني فيؤمن بالإله وينكر الدّين.

وبـين الملحد والعلمانيّ، فكلّ ملحـد علمانيّ، ولكن ليس كلّ علمانيّ ملحدًا، بل قد يكون ربوبيًّا أو متديِّنا يؤمن بالإله والأديان معًا، لكنه يجعل الدّين علاقة فرديّة خاصة بين الإنسان وربّه.

# الفصل الثاني:

## هل يمكن وجود الملحد الواقعيّ؟

## المبحث الأوّل:
## هل يمكن إثبات الإلحاد منطقيًّا؟

● **تمهيد:**

سنحاول محاكمة وجود الملحد الواقعيّ في ضوء أربعة منطلقات:

١. المنطق العقليّ.

٢. العلم التجريبيّ.

٣. الفطرة البشريّة.

٤. الوحي الإلهيّ.

ونذكِّر، بأنّنا نقصد بالملحد في هذا المبحث: من ينكر وجود الله,تعالى، أو الذي يعتقد بصدق قضية: الله غير موجود.

ولا يشمل الإلحاد في هذا المبحث:

أ. اللأدريّ، أي الذي يُشكِّك في قضية: «الله موجود».

ب. أو الـذي يعدُّ قضية: «الله موجود» مجـرّد فرضية مُحتمَلة لا يمكن إثباتها.

● **أوّلاً: الملحد لا يملك دليلاً على نفي وجود الله, تعالى:**

ذكرنا سابقًا، أنّ الأساس المنطقيّ في التعامل مع سؤال: « هل الله موجود»، ينبغي أن ينطلق من الشكّ، أي تعادل نسبة الإثبات والنفي، والخروج عن حدّ الاستواء -٥٠٪- إلى أحد طرفي الإثبات أو النفي يحتاج إلى دليل وبرهان، فلا يستطيع الإنسان أن يقول: الله موجود، إلّا بناء على دليل مُثبِت، وكذلك لا يمكنه القول: الله غير موجود، إلّا بناء على دليل ينفي.

فينبغي على الملحد أن يعلم أنّه هو أيضًا مُطالَب بالدليل لإثبات قضية: «الله غير موجود».

فالسؤال: هل يملك الملحد دليلاً ينفي وجود الله, تعالى؟

عادة ما يقع بعض الشباب في مغالطة منطقيّة نتيجة خداع منظّري الإلحاد، إذ يتوهّم أنّ مناقشة أدلّة وجود الله تعالى التي يطرحها المعتقدون بوجوده -مثل: دليل الإمكان، أو الحدوث، أو الحركة، أو دليل النظم، أو التصميم الذكيّ... إلخ- ودحض كونها قادرة على القيام بهذه المهمّة، هو بحدِّ ذاته دليلاً على النفي، فإذا سألت شابًّا ملحدًا: لماذا لا تعتقد بوجود الله؟ يجيب: لأنّه لا يوجد دليل على وجوده.

يا أيُّها المُسكين، منطقيًّا: إنّ عدم الدليل ليس دليلاً على العدم، وعدم الوجدان ليس دليلاً على عدم الوجود. فإذا أمكنك المناقشة في أدلة إثبات وجود الله,تعالى، ولم تتمكّن من الوصول إلى دليل

عـلى وجوده، فهـذا لا يقابله الاعتقاد بقضيـة: إنّ الله غير موجود، بل المنطـق البحثيّ يفرض عليـك التوقّف، وتعليـق الحكم، فتدخل في دائـرة اللاأدريّة والشـكوكيّة، وتقـول: أنا لا أدري، أنا شـكوكيّ، لا أن تقول: أنا ملحد.

من المسـتحيل عقلاً إقامة دليل ينفي وجود الله, تعالى, أو يثبت أن الله معـدوم، فإلى هـذه اللحظة التي نكتب فيها هـذه الكلمات لم يتمكّن أي فيلسوف ملحد أن يقيم دليلاً يُثبت فيه قضية: «الله غير موجود»، بل أقصى ما يمكنه فعله فكريًّا هو أن يناقش أدلة وجود الله تعالى.

هذا برتراند رسـل الفيلسوف البريطاني الّذي يُصنَّف في الملحدين، من موقعه كأسـتاذ رياضيّات ومنطق، ملتفت إلى هذه المغالطة، ولذا نفى عن نفسـه علميًّا صفة «ملحد»، وقال: «كفيلسوف، إذا كنت أخاطب جمهورًا فلسفيًّا بحتًا، ينبغي عليّ أن أصف نفسي بأنيّ: «لاأدري».

والسـبب الّذي علّل فيه رسـل موقفه هذا هو: «إنّنـي لا أعتقد أنّ هناك حجّة قاطعة من قِبَل أيّ شخصٍ تُثبِت أنّه ليس هناك إله»[1].

فالفيلسوف رسل -وهو المصنّف على رأس قائمة فلاسفة الإلحاد- نفى نفيًّـا قاطعًـا أن يكون هناك أيّ إنسـان يملك دليلاً على نفـي وجود الله تعالى.

---

١ - رسل، لماذا لست مسيحيًّا، ص٢٠٣-٢٠٤.

● **ثانيًا: الحوار الذاتيّ بين الملحد ونفسه:**

وحتى لو فرضنا جدلاً، وسلّمنا بأنّ نفي الدليل على قضية هو بحدّ ذاته دليل على إثبات نقيضها، فالسؤال الذي نطرحه على الملحد: هل قمت أنت بنفسك بالاطّلاع على أدلّة وجود الله تعالى كاملاً؟؟ ثم بعد ذلك، دخلت في عمليّة حوار ذاتي مع نفسك ونقاش فلسفيّ ومنطقيّ وعلميّ مع هذه الأدلة، ثم توصّلت -بعد التفكّر العميق والنظر والتأمّل والتدبّر والتعقّل والفحص والبحث والتنقيب والتحقيق ومحاكمة الأدلة- إلى أنّها أدلة باطلة، وكاذبة، وفاسدة، لا تصلح لإثبات: الله موجود؟!!

مثلاً، هل قرأت كتب: ابن سينا، والغزاليّ، والفخر الرازيّ، والمحقق الطوسيّ، وملا صدرا، والعلامة الطباطبائي، والشهيد مرتضى مطهري، والشهيد محمد باقر الصدر، و...؟؟؟

هل قرأت مثلاً كتاب: «اللـه، العلم، البراهين»، لميشيل إيف بولوريه وأوليفيه بوناسيس؟؟؟

وهل قرأت؟؟؟ وهل قرأت؟؟؟

اسأل نفسك: هل أنا ملحد عن قناعة ذاتيّة، نتيجة البحث في الأدلة ومحاكمة البراهين ومناقشتها؟؟؟ أم أنّا قمت بتقليد الآخرين - أمثال: ريتشارد دوكنز، وستيفن هوكنغ، وسام هاريس، وكريستوفر هيتشنز، ودانيال دينيت، وبيتر سنجر، ولورانس كراوس ...-، واتّبعت أقوالهم اتّباعًا أعمى؟؟؟

إنّ العقـل الرياضيّ والمنطقيّ يُحتِّـم عليك أن تقضي وقتًا طويلاً وجادًّا في البحـث عن الله,تعـالى، فإنّ إثبات مثل هذه القضية أو نفيها يسـتحقّ بذل الجهد الكبير، بل لو قضى الإنسـان عمره في البحث عن هذه القضيّة لمـا كان عابثًا، ولن يغني عنـك أولئك يوم القيامة شـيئًا -وتعامل مع يوم القيامـة كفرضية مُحتَملة ولو بنسـبة رياضيّة ضئيلة جدًّا- ولن يسـتنقذوك من العـذاب الأبديّ، فإنّ هؤلاء عندما يحشرون يـوم الفزع الأكبر ويرون العذاب، سـيتبرّأون منـك ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِيـنَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَـذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْـبَابُ**﴾[البقرة: ١٦٦]، كي لا يحملون وزرك فيعاقبـون عـلى وزرك وذنبك مع ذنوبهـم وأوزارهم، وهيهـات لهم ذلك (**لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَـةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ**)[النحل: ٢٥].

بل حتى الشيطان سيتبرأ من أتباعه: ﴿**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُـمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُـمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[إبراهيم: ٢٢]

وحينها أنت ستقف لتتبرأ منهم لتقول: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَـبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾[البقرة: ١٦٧]، وتتمنى لو أنّ لك فرصة أخرى،

وتقول: (ربّ ارجعون)، وحينئذ يأتيك الجواب: (كلاّ)[١]، ولن ينفعك قولك: ﴿قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾[الأحزاب: ٦٧].

## ● ثالثًا: منطق الاحتمال الرياضيّ والبحث عن وجود الله:

إنّ منطق حساب الاحتمالات الرياضيّ يقول: إنّ قيمة الاحتمال لا تخضع لعامل واحد وهو «درجة الاحتمال» وحسب، بل لا بدّ أن نلاحظ أيضًا «درجة المُحتمَل»، فمثلاً لو كان احتمال الربح في عمل اقتصادي هو ٥ ٪، وفي عمل آخر هو ١٠ ٪، ولكن مقدار الربح المُحتمَل الّذي يجنيه العمل الأول هو ١٠٠٠٠ دينار، والعمل الثاني هو ١٠٠٠ دينار، فإنّ العمل الأوّل يرجح على الثاني بخمسة أضعاف، مع أنّ درجة الاحتمال فيه ٥٪، وهي نصف درجة الاحتمال في العمل الثاني ١٠ ٪، ولكن ذلك لأننا نأخذ بعين الاعتبار قيمة المُحتمَل أيضًا، فتصبح المعادلة الرياضيّة كالتالي[٢]:

$$500 = \frac{500000}{100} = \frac{5}{100} \times 10000$$

$$100 = \frac{10000}{100} = \frac{10}{100} \times 1000$$

$$5 = 100 \div 500$$

١ - راجع: سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠.
٢ - انظر: اليزدي، دروس في العقيدة الإسلامية، ج١، ص٣٥.

وإذا أخذنـا هذا المنطق الرياضيّ بعين الاعتبار، وأضفنا إلى جانبة أنّ البحث عن الله مع ما يتضمّنه الإيمان به من الاعتقاد بعالم ما بعد الموت والحياة الأبدية في العـذاب أو النعيم، فـإن غريزة دفع الضرر المُحتمَل تدفع الإنسـان للبحث حتـى لو كان احتمال التوصّل إلى نتيجة يقينيّـة ضعيف جدًّا، ولكن بالرغم من ضعـف هذا الاحتـمال، إلّا أنّ قيمة المُحتمَل لا نهائيـة، فيكون حاصل ضرب قيمة الاحتمال بقيمة المحتمل -وهو لا نهائي- يفوق أيّ احتمال آخر، مقارنة به.

قال الشّاعر:

لا تحسبنَّ المجدَ تمرًا أنت آكله　　لن تبلغ المجد حتى تلعق الصّبِرا

وقال آخر:

تُريدِين لُقْيان المعالي رخيصـةً　　ولا بدّ دون الشّهْـد مِـن إِبَرِ[1] النّحْلِ

## المبحث الثاني:
## هل يمكن إثباتُ الإلحاد الواقعيّ علميًّا؟

### ● أوّلًا: شبهة كون معيار صدق القضية هو الملاحظة الحسيّة:

تقـدّم أنّ نظريـة المعرفة عند الملحديـن تقوم على أسـاس أنّ معيار صدق أيّ قضية هو بإمكانيّة التحقّق منها حسيًّا أو تجريبيًّا فقط، فقضايا

١ - إِبَرِ: جمع إبْرة: وهي ما تلسع به.

العلوم الطّبيعيّة مثل: الماء يغلي على درجة حرارة مئة على مستوى سطح البحر، تملك خاصيّة التثبت منها بوساطة الملاحظة الحسيّة، وكلّ القضايا الأخرى التي لا تحمل قابلية التثبت منها تجريبيًّا، فهي قضايا وهميّة وكاذبة، ومنها: قضية: «الله موجود»، لأنّها تتحدث عن موضوع خارج نطاق الحسّ.

وقد تأثّر بهذا المنطق حتى بعض المتديّنين، فعندما تتحدّث معه عن أمور غيبيّة كالملائكة والمعجزات والوحي و... يفسّرونه تفسيراً طبيعيًّا وضمن قوانين المادة.

المنطق العلمي التجريبيّ -عند هؤلاء- يفترض وجود ترابط بين أمرين: المحسوسيّة والواقعيّة، فكلّ ما يمكن أن نحسّ به -أي أن نراه أو نسمعه أو نلمسه...- فهو واقعيّ، وكلّ ما لا يمكن أن ندركه حسيًّا فلا واقعيّة له، بل مجرد وهم اخترعه الذهن البشريّ.

وبناءً عليه، إذا كان اللّه في التصوّر الدِّيني غير قابل للرؤية (لا تدركه الأبصار)[1]، فهذا يعني أنّ اللّه غير موجود، لأنّه غير محسوس.

---

١ - سورة الأنعام، الآية:١٠٣. عن الإمام علي بن أبي طالب -عليه السّلام-: « لا تراه العيون بمشاهدة العيان». (نهج البلاغة، مصدر سابق، ج٢، ص٩٩.) وعن الإمام الصّادق -عليه السّلام-، للزنديق حين سأله: ما هو؟ قال: «هو شيء بخلاف الأشياء... لا جسم، ولا صورة، ولا يُحسّ، ولا يُجسّ [لا يجسّ: أي لا يمسّ باليد، ويُحتمل كونها بمعنى: لا يُتفحَّص، يقال: جسستُ الأخبار ، أي تفحّصتُ عنها.]، ولا يُدرِك بالحواس الخمس ولا تدركه الأوهام». (الكليني، الكافي، ج١، ص٨٣.)

وباختصار: إذا كان كلّ محسوس موجود، فلا شيء من اللامحسوس بموجود.

والخلاصة، لقد حاولت نزعة الإلحاد تصوير وجود تناقض جذريّ بين المنهج العلميّ - التجريبيّ والإيمان بالله.

يقول ريشتارد دوكنز: «لقد طرد دارون الإله من البيولوجيا، ولكنّ الوضع في الفيزياء بقي أقل وضوحًا، ويُسدّد هوكينج الضربة القاضية الآن»[١].

● **ثانيًا: وجود الله، تعالى، يمكن إثباته علميًّا بوساطة المنهج التجريبي:**

لكن، غفل الملحد عن أنّ قضية: «الله موجود»، وإن لم تكن قابلة للملاحظة الحسيّة، إلّا أنّه يمكن التثبّت منها بوساطةبوساطة المنهج التجريبيّ القائم على أساس منطق الاستقراء.

فقد وقع الخلط عند هؤلاء الملحدين المراهقين فكريًّا بين الملاحظة الحسيّة والمنهج التجريبيّ،أنّ المنهج التجريبيّ لا يقوم فقط على إثبات ما يمكن ملاحظته حسيًّا، فكم من الأشياء التي لا نلاحظها حسيًّا في ذاتها، ومع ذلك تُثبتُ بوساطةبوساطة المنهج التجريبيّ، كقانون الجاذبيّة لنيوتن (F=G×(M١M٢)/r٢)[٢] الذي ينصّ على أنّه يوجد قوة جذب بين أي

١ - نقلاً عن: نور الدين أبو لحية، الكون بين التوحيد والإلحاد، ص٨٢.

٢ - F هي قوة الجاذبية، وm١ وm٢ هما كتلتا الجسمين، وr هي المسافة بينهما، وG هي ثابت الجاذبية.

جسمين، تتناسب هذه القوة طرديًّا مع حاصل ضرب كتلتيهما، وعكسيًّا مع مربع المسافة بين مركزيهما، حيث لا نرى أو نلمس قانون الجاذبيّة بنفسه، ولكننا نشاهد آثاره، بحيث لا يوجد تفسير معقول لهذه الآثار إلّا في ضوء هذا القانون، وكذلك الحال فيما يتعلّق بإثبات وجود الله,تعالى، فإنّ الله, تعالى, وإن لم يمكن إدراكه حسيًّا في ذاته، إلّا أنّ هذا لا يعني أنّه لا يمكن إثباته تجريبيًّا، بل التجربة تُثبت وجود الله, تعالى, من خلال رؤية الآثار التي ليس لها أي تفسير منطقيّ إلّا في ضوء الإيمان بالصانع العالِم القادر.

وقد عرض السيد الصدر الدليل التجريبيّ والاستقرائيّ على وجود الله, تعالى, على نحوٍ تفصيلي، تحت عنوان: «الاستدلال العلميّ لإثبات الله, تعالى»، في كتابه: «المُرسِل، الرسول، الرسالة»، وسنعرض ملخّصًا عنه في بعض المباحث اللاحقة.

فهناك مفارقة عجيبة في حياة الملحدين بين منهج البحث العلمي، والنتيجة التي يعتقدون بها، وهي إنكار وجود الله,تعالى، ففي اللحظة التي كان ينبغي فيها أن يُعتمد الاستقراء والتجربة لدعم الإيمان بالله في اكتشاف ما تحتويه الطبيعة من إحكام هندسيٍّ وإتقان ذكيٍّ، استُخدِم الاتجاه الحسي والتجريبي لضرب فكرة الإيمان بالله,تعالى، فما دام الله, تعالى, لا يخضع للخبرة الحسيّة، فهو غير موجود، أو لا أقل لا طريق إلى التثبت من وجوده، هذا التناقض المصطنع بين العلم -كمنهج قائم على الاستقراء والتجربة- والإيمان بالله، عاشه الشهيد الصدر كهمٍّ فكري، فدوّن

أطروحته في كتابه: «الأسس المنطقيَّة للاستقراء»، ليؤكد على حقيقة في غاية الأهمية، «هي أنّ الأسس المنطقيَّة التي تقوم عليها كلّ الاستدلالات العلمية المستمدة من الملاحظة والتجربة، هي نفس الأسس المنطقيَّة التي يقوم عليها الاستدلال على إثبات الصانع المدبّر لهذا العالم، عن طريق ما يتصف به العالَم من مظاهر الحكمة والتدبير، فإنّ هذا الاستدلال كأي استدلال علمي آخر، استقرائيّ بطبيعته، وتطبيق للطريقة العامة التي حددناها للدليل الاستقرائيّ في كلتا مرحلتيه.

فالإنسان بين أمرين:

فهو إمّا أن يرفض الاستدلال العلمي ككلّ.

وإمّا أن يقبل الاستدلال العلمي، ويعطي للاستدلال الاستقرائيّ على إثبات الصانع نفس القيمة التي يمنحها للاستدلال العلمي.

وهكذا نبرهن على أنّ العلم والإيمان مرتبطان في أساسهما المنطقي-الاستقرائيّ، ولا يمكن من وجهة النظر المنطقيَّة للاستقراء الفصل بينهما»[1].

فالرسالة الواضحة للملحد هي، أنّه ينبغي التمييز بين ثلاثة قضايا:

**الأولى:** أنّ التجربة غير قادرة على إثبات وجود الله تعالى.

**الثانية:** أنّ التجربة تُثبت أنّ الله غير موجود.

---

١ - الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء، ص٤٦٩. وانظر: الطباطبائي، ومطهري، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي، المجلد٣، المقالة ١٤، ص٢٠٣-٣٠١.

**والثالثة:** أنّ التجربة تُثبت أنّ الله تعالى موجود.

لا يمكــن للملحــد أنّ يدّعي أن التجربة تثبت أنّ اللــه غير موجود، لأنّ التجربــة تتعهد بإثبات ما يقــع تحت دائرة أدواتهــا، ولا يمكنها النفي لما هــو خارج حدود أدواتها، فلو افترضنا أنّ الله موجود، إلّا أنّ التجربة ليس بإمكانها نفيه، سواء أكان الله حسيًّا أم مجرّدًا عن الحواس.

فأقــصى ما يمكن أن يدّعيه هؤلاء أنّ التجربة لم تثبت وجود الله، ولكن قلنا سابقًا إنّ عدم إثبات شيء لا يعني إثبات عدمه.

ونحــن نقــول: إنّ التجربة -كما أكّد الشــهيد الصدر- تثبــت وجود الله تعالى.

## ● ثالثًا: مناقشة شــبهة الملحدين في التساوي بين المحسوسيّة والواقعيّة:

ولتتضح الفكرة السابقة على نحوٍ جليّ، نعرض بعض النقاط:

**أوّلًا:** ننطلــق مــن أنّ الله, تعالى, موجود مجرّد عــن المادة ومن عالم ما وراء الطبيعة، فوجهة نظر الملحدين قد تورّطت في مغالطتين كاذبتين:

- **الأولى:** حصر الوجود في نطاق عالم المادّة فقط.
- **والثانية:** حصر أدوات المعرفة البشريّة في التجربة والملاحظة الحسيّة.

وهاتــان القضيّتان مترابطتــان منطقيًّا، بحيــث تنبثق الثّانيــة عن الأولى معرفيًّــا، وذلك لأنّه إذا كان المعيار الحــصري الذي يمكن اعتماده للتأكّد

من صدق قضيّة ما هو قابليتها للملاحظة الحسيّة بوساطة البصر أو السمع أو اللمس، فمعنى ذلك أنّ كلّ ما لا يمكن أن يخضع للرؤية أو السمع أو اللمس فهو غير موجود.

مع أنّه لو افترضنا فرضًا أنّ هناك عالَم ما وراء الطبيعة والمادة، فالحكم عليه بأنّه موجود أو غير موجود، ليس من اختصاص الحواس، لأنّها منحصرة بما هو داخل دائرة الحسّ، وتَدَخُّلها فيما وراء عالم المادة سلبًا أو إيجابًا هو فضول منها.

وبعبارة أخرى: إنّ البحث عمّا وراء المادة خارج عن دائرة المنهج الحسيّ، فليس من حقّه أن يعطي رأيًا فيه لا إثباتًا ولا نفيًا، بل يُعلِّق الحكم، ويتوقف، ويقول هو مجرد فرض لا يمكن إثباته.

**ثانيًا:** ننطلق فيها من افتراض أنّ الإله كائن ماديّ وطبيعيّ، فلو سُئل الشّخص الذي يعتقد بحصرية الملاحظة الحسيّة والحواس في إثبات مضمون قضية: هل هناك كائنات حيّة تعيش على الكواكب الأخرى في المجرات البعيدة؟ فلا يمكنه أن يجيب بالنفي، لأنه لا يملك دليلاً على عدم وجود الكائنات الفضائية الحيّة، كما أنّه لا يمكن أن يجيب بالإثبات، لأنه لا يملك معطيات حسيّة على ذلك، فأقصى ما يمكنه قوله: يمكن أن تكون موجودة ويمكن أن لا تكون موجودة، ففقدان الدّليل الحسي على شيء ليس دليلاً على عدم وجوده، فأقصى ما يفيده ذلك هو السّكوت، لا اتخاذ موقفٍ سلبيٍّ، أيّ أنّ المنطق يفترض أن يقول التجريبيّ -لأنّنا

افترضنا أن الإله ماديّ وطبيعيّ-: لا أعلم إذا كان هناك إله أم لا، وليس من حقّه القول: الله غير موجود، ففرق كبير بين عدم العلم، والعلم بالعدم.

فقضية: الله موجود، وإن لم تكن قابلة للإثبات بالحواس، لكنّها غير قابلة للنفي أيضًا، لأنّه لا يوجد دليل حسيّ على نفيها، فالمنطق يقتضي التوقف والسّكوت[1].

**حوار بين الإمام جعفر الصادق (عليه السّلام) وملحد:**

ويتأكّد هذا المنهج الّذي يهتمّ بالمقدِّمات المعرفيّة والمنطقيَّة في حوارهم, صلوات الله عليهم أجمعين, مع الزنادقة والملحدين، ويكفي الاطّلاع على كتاب الاحتجاج للشيخ الطبرسي لتتجلى هذه الفكرة بوضوح، ونكتفي برواية واحدة ذكرها الشيخ الكلينيّ (ره) عن حوار بين أحد الزنادقة المنكرين لوجود الله, تعالى, وبين الإمام الصادق عليه السلام.

قال عليه السلام للزنديق: أتعلم أنّ للأرض تحتًا وفوقًا؟

قال: نعم.

قال (ع): فدخلت تحتها؟

قال: لا.

---

١ - عن أمير المؤمنين عليه السّلام: «لو أنّ العباد حين جهلوا وقفوا، لم يكفروا ولم يضلوا». الواسطي، عيون المواعظ والحكم، ص٤١٦.

وعن الإمام زين العابدين عليه السّلام: «إن وضح لك أمر فاقْبَله، وإلّا فاسْكُتْ تَسلَم». المجلسي، بحار الأنوار، ج٢، ص١٢٠.

قال: فما يدريك ما تحتها؟

قال: لا أدري، إلّا أنيّ أظنُّ أن ليس تحتها شيء.

فقال (ع): فالظن عجز، لم لا تستيقن؟!

ثم قال أبو عبد الله (ع): أفصعدت السماء؟

قال: لا.

قال: أفتدري ما فيها؟

قال: لا.

قال (ع): عجبًا لك، لم تبلغ المشرق، ولم تبلغ المغرب، ولم تنزل الأرض، ولم تصعد السماء، ولم تجز هناك، فتعرف ما خلفهن، وأنت جاحد بما فيهنّ، وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟!

قال الزنديق: ما كلّمني بهذا أحد غيرك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: فأنت من ذلك في شكٍّ، فلعله هو، ولعلّه ليس هو؟

فقال الزنديق: ولعل ذلك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: أيُّها الرجل! ليس لمن لا يعلم حجّة على من يعلم، ولا حجة للجاهل يا أخا أهل مصر! تفهم عنّي فإنّا لا نشكُّ في الله أبدًا»[1]...

---

١ - الكليني، الكافي، ج١، ص٧٣-٧٤.

ثم أقام له الإمام عليه السّلام الأدلة على وجود الله,تعالى، فآمن الزنديق، وأخذه هشام بن الحكم فعلّمه أصول العقيدة والدِّين.

● **رابعًا: التجربة العلميّة تحتاج إلى المعرفة العقليّة:**

إذا أقمت دليلاً عقليًّا أو فلسفيًّا على وجود الله,تعالى، يبادر المُلحد ويقول لك: أنا لا اعتقد بالفلسفة العقليّة والمنهج الفلسفيّ، فالفلسفة من مخلّفات الحضارات القديمة التي لم تصل إلى العلم التجربة. أعطني دليلاً علميًّا على وجود الله؟

لكن غفل هذا المسكين، عن أنّ التجربة العلميّة التي تعتمدها العلوم التجريبيَّة لا يمكن أن تصل إلى صياغة قوانين علميّة إلاّ بالاستعانة بالقواعد العقليّة والمنطقيَّة، ولولا القواعد العقلية ينهار صرح العلوم الطبيعية والتجريبيَّة. فأدوات المعرفة الإنسانيَّة في الكشف عن الحقيقة والتثبّت من صدق القضايا لا تنحصر بالتجربة والملاحظة الحسيّة فقط، بل الأداة الأساس هي العقل، والمقصود بالعقل القوة المعرفيّة التي يتمكّن الإنسان بواسطتها من إدراك بعض المعارف القبليّة المستقلة عن التجربة، فليست التجربة والملاحظة الحسيّة هي الأساس العام الوحيد الذي يموّن ذهن الإنسان بكلّ ألوان المعرفة البشريّة.

ولتعميق الفكرة، وبالعودة إلى ما كنا وعدنا به من مناقشة منهجية تفكير الفلسفة الوضعيّة، التي تقوم على أطروحة أنّ المعرفة العلميّة التي

تستند إلى الملاحظة الحسيّة والاستقراء، وحدها يمكن أن تمدّنا باليقين، أو تتمتع بقيمة منطقيّة، فالمناقشة الأساس التي تتوجّه إلى منهج تفكير الوضعية هو أنّ ادعاءها بأنّ المفاهيم الدينية والفلسفيّة فارغة وليس لها مضمون ومعنى هو واضح البطلان، لأنّه لو كانت الألفاظ الدالة على هذه المفاهيم لا معنى لها لها إطلاقًا لم يكن بينها وبين الألفاظ المهملة فرق، ولأصبح نفيها وإثباتها سواء، بينما نحن نلاحظ أن اعتبار الله علّة للكون مثلاً ليس مثل اعتبار عكس ذلك، وحتى الذي ينكر أصل العليّة فإنه قد أنكر قضية يُدرك مفهومها.

كما أنّه بناء على الفلسفة الوضعيّة «لا يبقى مكان لأي قانون علميّ بعنوان كونه قضية كليّة يقينية وضروريّة، وذلك لأنّ هذه الخصائص لا يمكن إثباتها حسيًّا...».

كما أنهم يتورّطون بطريق مسدود بالنسبة إلى المسائل الرياضيّة التي تعالج بوساطة المفاهيم العقليّة، أي بنفس تلك المفاهيم التي يعدُّها هؤلاء لا معنى لها.

**ثغرة التفكير الاستقرائيّ القائم على الملاحظة الحسيّة:**

فالملاحظة الحسيّة أو التفكير الاستقرائيّ الذي يقوم على تتبع مجموعة من الجزئيّات للوصول إلى قانون كليّ، مثل أن يرى الإنسان أنّه إذا تناول هذا النوع من الأعشاب فإنّه يسبب الإسهال مثلاً، ثم يرى

أنّه في المــرة الثانية كذلك، وفي المرة الثالثــة كذلك، وهكذا إلى عشر مرات مثلاً، فمع أنّه لم يجرّب هذا النوع من الأعشــاب إلّا عشر مرات مثــلاً لكنه يصــدر حكم عام، ويقــول: تناول هذا النوع من الأعشــاب يسبب الإسهال.

لكن عند التحليل، يلاحظ المنطقيّ أنّ الاستقراء ليس مجرد عملية تعداد كمّــي لحالات جزئية وخاصة، فهذا لا يفيد العلوم الطبيعية المطلوب فيها التقنين العلمي شــيئاً، بل هو اســتدلال يقوم عــلى فحص الجزئيات بنحو تكشــف لنا عن نتيجة يمكــن صياغتها بصورة قانون عــام، يصطلح عليه: التعميم الاستقرائيّ.

والمُلاحَظ، كما تقدّم في مثال الأعشــاب أنّ نتيجة الاســتقراء هي دائماً قضية عامة تتجــاوز ميدان الملاحظة الحســيّة والتجربة، فتكون أكبر من المقدمات التي ســاهمت في تكوينها، لأنّهــا تصدق على حالات أخرى لم تتم تجربتها، فمثلاً هذا النوع من الأعشــاب الذي ســبب الإسهال في المرة الســابقة، لا يقدم الإنســان على تناوله في المرة اللاحقة وغيرها من مئات المرات التي قد يواجهها، مع أنّه لم يجرّبها، فلماذا امتنع عن تناولها مــع أنّه لم يجربّها؟ ليس ذلــك إلّا لأنه قد كوّن في عقلــه قانونًا عامًا من أنّ تناول هذا النوع من الأعشــاب يسبب الإســهال، مع أنّه لم يجرب كل أفراد هذا النوع من الأعشــاب الموجودة في العالم، لكنه مع ذلك أصدر حكمًا كليًّا، هذا الحكم الكلي لم يأخذه من بعض الجزئيات التي جرّبها،

لأنّهـا لا يحقّ لـه أن يصدر حكمًا عامّا فقط بسـبب بعض الحالات التي جرّبهـا، إذ لعله في الحالات الأخرى لا يصاب بالإسـهال، فمن أين أتى بهذا القانون القام؟

مهـما بلغت الحالات المُسـتقرَاة مـن الكثرة لن تصل إلى حدّ المسـح الشامل (الاستقراء التام)، إذ يمنع عدم ملاحظة سائر الجزئيات، التي سبقت في الماضي، أو التي ستأتي في المستقبل، فما هو المبرّر المنطقي لاتخاذ التجارب التي أجريتها سبباً كافياً للاعتقاد بصدق النتيجة الشاملة للحالات التي لم تخضع للاختبار الحسيّ وما لا يتناهى من التطبيقات[١]؟!!.

يقـول العلامـة الطباطبائي: « إنّ التَّشريح مثلاً، إنّما ينال من الإنسـان أفراداً معدودين، قليلين أو كثيرين، يعطي للحسّ فيها مشـاهدة أنّ لهذا الإنسان قلباً وكبداً مثلاً، ويحصل من تكرارها عدد من المشـاهدة يَقلُّ أو يكثر، وذلك غير الحكم الكلي في قولنا: كلّ إنسـان فله قلب أو كبد، فلو اقتصرنا في الاعتماد والتعويـل على ما يسـتفاد من الحس والتجربة فحسـب، مـن غير ركون على العقليات من رأس، لم يتمّ لنا إدراك كلي، ولا فكر نظري، ولا بحث علمي»[٢].

بينـما لا يواجه المنطق العقلي عقدة في معالجة مشـكلة الاسـتقراء، إذ يمكنـه حلّها من خـلال القوانين العقليّـة القائمة على أسـاس: القبليات العقليـة -كقانـون التناقض، والعليـة، والأمثال، ونفي تكـرر المصادفة-،

١ - رسل، مشكلات الفلسفة، ص٦٧-٧٠.
٢ - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٤٦.

والمنهج الاستنباطي في التفكير[١]، المبني على التعليل.

ولا نريد أن ندخل على نحوٍ تفصيليّ ومعمّق حول هذه النقطة، لأنّها ليست مورد بحثنا، وإنّما ما نريد أن نصل إليه أنّه لو آمنا فقط بالملاحظة الحسيّة كوسيلة وحيدة لتموين الذهن البشريّ بالمعلومات، ولم نعتمد على العقل والعلل والقوانين العقلية والبديهيات العقليّة لما استطعنا بناء أي قانون كليّ حتى في العلوم الطبيعية كالطّب وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الفلك و... إلخ.

فمع فرض إنكار المنطق العقلي لا يكون ثمة قيمة منطقية لأي قضية طبيعية أو قانون علميّ، لأنه لا يمكن عزل إنتاج المعرفة في العلوم الطبيعية عن بعض القضايا الأوّليّة والضرورية.

**أ. قانون التناقض قبل التجربة:**

فلا يمكن للذهن البشريّ التثبت من صحّة القضايا الحسيّة والتجريبيَّة نفسها إلّا بوساطة الاستعانة بالقضايا العقليَّة، فما لم يؤمن الإنسان مثلاً بقانون استحالة اجتماع النّقيضين[٢] «القضيتان المتناقضتان لا تصدقان معًا» وهو قضيّة عقليَّة أوليّة بديهيَّة، لا يمكنه الاعتقاد بصدق أيّ قضيّة

١ - انظر: ابن سينا، الشفاء- المنطق، البرهان، ص٩٥. والطباطبائي، محمد حسين، تقديم وتعليق مرتضى مطهري، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي، ج١، ص٤٣٢.

٢ - نقصد بالتناقض هنا معناه الأعم الذي يشمل القضايا المتناقضة والقضايا المتضادة بالمعنى المنطقي.

تجريبيّة، لأنّه مع رفض قانون التناقض، يصحّ حينها الاعتقاد بالمتناقضين، فما المشـكلة في الاعتقاد بصدق قضيّة: «الماء يغلي على درجة حرارة مئة على مستوى سطح البحر»، والاعتقاد بصدق نقيضها أيضًا: «الماء لا يغلي على درجة حرارة مئة على مستوى سطح البحر»؟!! وما المانع -مع اجتماع شروط التناقـض- مـن أن تكـون قضيّة «هـذه الحديدة تتمـدد بالحرارة» صادقة، وقضيّة «هذه الحديدة لا تتمدّد بالحرارة» صادقة أيضًا؟!!

وكذلـك، إذا لم يؤمن المُلحد بالمنهج العقليّ واعتمد فقط على المنهج التجريبـيّ، فما المانـع لديه من صدق القضيتـين التاليتين: «الله موجود» صادقـة، و» الله غير موجود» صادقـة، فالمؤمن صادق في اعتقاده بمعنى أنّ اعتقـاده بوجود الله مُطابِق للواقع، والمُلحد صادق في اعتقاده، بمعنى أن اعتقاده بعدم وجود إله مطابق للواقع.

إنّ العلم بصدق القضيّة الأولى إنّما يلزم عنه العلم بكذب القضيّة الثّانية إذا سلّمنا بقانون التناقض، وإلّا لأمكن تصادقهما معًا.

**هل يمُكن أن يعتقد المُلحد بمثل ذلك؟ لِمَ لا؟**

إذا اعتقد الملحد باسـتحالة ذلك، فهـذا الاعتقاد ليس إلّا لأنّه يعتقد بقانـون التناقـض عـلى نحوٍ قبليّ ومسـتقل عـن التجربـة، لأنّ قانون التناقض عقليّ بديهيّ وليس قانونًا تجريبيًّا، فهناك معارف أوّليّة مستقلة عـن التجربة ولا تثبت بوسـاطة التجربة بل التجربة تحتاج إليها لصدق نتائجها.

**ب. قانون الاطّراد في الطبيعة قبل التجربة:**

وكذلك الأمر بالنسبة إلى قانون الأمثال[1]، فما لم نعتقد مثلاً أنّ الأفراد المشتركة في الطبيعة لها الحكم ذاته من حيث تلك الطبيعة، لما استطعنا تعميم الحكم الذي اكتشفناه بالتجربة إلى غير الأفراد الواقعة تحت الملاحظة الحسيّة.

فمثلاً: إذا لمسنا النّار وشعرنا بالحرارة واحترقت يدنا، ثم لمسنا نارًا أخرى فشعرنا بحرارتها واحترقت يدنا، وتكرّرت منّا هذه الحالة عشرات المرّات، فمهما تكثّرت الأمثلة وتعدّدت دائرة الملامسة الحسيّة للنار يبقى عدّد النّيران التي جربناها محدودًا بالقياس إلى النّيران الموجودة في العالَم، فكم نار جرّبنا عشرة؟ خمسين؟ مئة؟ ألف؟ لكن عدد النيران الموجود في عالم

---

١ - قانون الأمثال: يعني أنّه لو كان هناك فردان -أو أكثر- مشتركان في ماهية نوعيّة واحدة كالإنسانيّة...، بمعنى أنّه لو سُئِل عن الأول ولنفترضه «محمد»: ما هو؟ فكان الجواب: إنّه إنسان، وسُئِل عن الثّاني ولنفترضه «علي»: ما هو؟ فكان الجواب: إنّه إنسان، فبما أنّ عليه وإنسان متّحدان في الحقيقة ومشتركان في الماهية الواحدة، فيحكم العقل بأنّه إذا كان هناك صفة تُنسب إلى محمد باعتبار كونه إنسانًا مثل أنّه حيّ أو حسّاس أو مُدرك للكليّات، فينبغي أن تُنسب هذه الصّفة بعينها إلى علي باعتبار كونه إنسانًا، فيكون عليٌّ أيضًا حيًّا وحسّاسًا ومُدركًا للكليّات... وهذا معنى هو مفاد قانون الأمثال، أيّ ما يصحّ حمله على فرد من أفرادَ ماهية كصفة الحسّاس حينما نقول: محمد حسّاس، يصح حمله على فرد آخر من أفراد تلك الماهية فنقول: عليّ حسّاس... وهكذا. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا القانون مختصّ بالصفات التي تكون من ذاتيات الماهيّة أو العوارض اللازمة التي يستحيل أن تنفك عن الماهية دون الصّفات العرضية المُفارقة التي قد تختلف من فرد إلى آخر من الماهية نفسها، فإذا كان محمدٌ طويلاً أو أبيضَ أو وزنه ٦٠ كغ أو... فلا يعني أنّ عليًّا ينبغي أن يكون كذلك، لأنّ هذه الصّفات عرضيّة مُفارِقة تختلف من إنسان إلى آخر.

الطّبيعة بالملايين، ومع ذلك، إذا شـاهدنا نارًا مشتعلة من بعيد نقول: «هذه النّـار محرقة»، ونجتنـب الاقتراب منها، فكيف يمكننـا أن نحكم على هذه النّار بأنّها محرقة مع أنّنا لم نجرّبها ونلمسـها لنعرف أنّه مُحرقة أم لا قبل أن نلاحظها حسيًّا؟!! ليس ذلك إلّا بوساطة قانون الأمثال، حيث يحكم العقل بـأن هذه النّار محرقة لأنّها تشـابه وتماثل تلك النّـار التي جربناها من قبل، وهذا حكم عقلي أوّليّ لا علاقة له بالتجربة، أي أنّه ليس قانون تجريبيّ، بل هو قانون يسبق التجربة وتحتاجه التجربة في الوصول إلى النتائج المطلوبة، فما لم يؤمن الإنسـان قبل التجربة بأن الأفراد المشتركة في طبيعة واحدة لها نفس الحكم وينطبق عليها القانون نفسه، لما قام أي صرح علميّ من العلوم الطبيعيّة، فلماذا أقصد مثلاً تناول حبّة الدواء (أ) لألم المعدة ولا آخذها لألم الكتف، مع أنّني لم أجرّبها، بل ما تمّ تجريبه هو حبّة دواء أخرى مشابهة لها في التركيبـة والطبيعة؟ ليس ذلك إلّا للاعتقاد القبليّ والمسـبق قبل التجربة بقانون الاطّراد في الطبيعة وقانون الأمثال.

## المبحث الثالث:
## هل يمكن وجودُ الملحد الواقعي فطريًّا؟
## وهل يمكن ذلك في ضوء نصوص الوحيّ الإلهيّ؟

سـنحاول في هذا المبحث إثبات اسـتحالة وجـود الملحد الواقعيّ من

ناحية فطريّة ومن ناحية نصوص الوحي الإلهيّ.

ونقصد باستحالة وجود الملحد الواقعيّ فطريًّا: أنّنا إذا حلّلنا طبيعة الفطرة الإنسانيَّة، نعثر على الإقرار بوجود الله, تعالو كمحمول تحليليّ فيها، أي أنّ الشعور الديني متأصّل في الذات البشريّة ومستبطَن فيها، وكلّ من يدّعي خلاف ذلك فهو إما كاذب، وإمّا متوهّم، وإما مريض نفسيًّا.

## ● أوّلًا: مفهوم الفطرة:

جُبِل الإنسان في داخله على مجموعة من المشاعر والعواطف والرغبات والميول والغرائز... التي تمكِّنه من تأمين حاجاته الحياتية الماديّة والمعنويّة وتحقيق أهدافه، كالغريزة الجنسيّة، التي وظيفتها أن تساعده على بناء الأسرة واستمرار النوع البشريّ، وكذلك غريزة الدفاع عن الذات، فإذا رأى الإنسان أي خطر يقترب منه يدافع عن نفسه، وكذلك غريزة حبّ الاستطلاع والتعرف والاكتشاف التي تحفّز الإنسان على طلب العلم والمعرفة، ... إلخ، فهذه الغرائز والميول تساعد الإنسان على تأمين حاجاته في الحياة.

وهذه الميول والغرائز هي التي نسمّيها: «الفطرة»، فالفطرة هي الكيفية الخاصة التي وُجِد الإنسان عليها.

ومن هذه الميول الفطريّة التي يشعر الإنسان بها في داخله هي حالة الانجذاب نحو قوة عظمى في هذا الكون، وهي ما نسميه: الشّعور الدينيّ.

● **ثانيًا: معايير قياس الشعور الفطريّ:**

هل هناك معايير نستطيع بوساطتها أن نعرف أنّ هذا الشعور الذي يعيشه الفرد منّا هو فطري أم غير فطري؟ فلعل بعض المشاعر تختلط علينا، فنظنّ شعورًا ما بأنّه فطري وهو لا يكون كذلك، أو العكس، فكيف نميّز بين الشعور الفطريّ بأصل الخلقة وبين غيره من الميول والرغبات المُكتَسبة التي نشعر بها نتيجة التربية والتثقيف والتعليم والتأثر بالمحيط الاجتماعيّ والبيئة الجغرافية التي نعيش فيها؟

الجواب: نعم، هناك معايير وموازين يمكن بوساطتها تحديد الشعور الفطريّ وتمييزه عن غيره، منها:

١ - **المعيار الأوّل (الضرورة دون الاختيار):** الشعور الفطريّ مغروس في داخل الإنسان بأصل الخلقة بنحو قهريٍّ واضطراريٍّ، فهو ليس أمرًا اختياريًّا خاضعًا لقرار الإنسان وإرادته الحرّة، فالإنسان مثلاً يختار أن يعمل في هذه المهنة أو تلك، ولكنه لا يختار أن يغرس في نفسه الغريزة الجنسية.

٢ - **المعيار الثاني (اللااكتساب وعدم القابليّة للتربية والتعليم):** الشعور الفطريّ لا يحتاج فيه الإنسان إلى اكتسابه بوساطة التعليم والتعلّم والتربية والتثقيف، فمثلاً القدرة على النطق قوة فطريّة في الإنسان، وكذلك قوة التفكير.

وهذا لا يعني أنّ تنمية الشعور الفطريّ لا تحتاج إلى التربية والتعليم،

فالإنسان وإن كان يملك بالفطرة قوة النطق، ولكنه يحتاج إلى تعلّم لغة البيئة التي يعيش فيها ليعرف كيف ينطق بالكلمات، فالمجتمع أو الأهل أو المدرسة لا يمنحون الطِّفل أصل القدرة على الكلام، بل يعلّمونه كيف يتكلّم على نحوٍ صحيح، فلو أنّ فردًا من أفراد البشر كان بأصل الخلقة عاجزًا عن الكلام كالأبكم، فلا يمكننا بالتربية والتعليم منحه القدرة على الكلام.

وبهذا يتضح أنّه إذا كان هناك شعور فطريّ فهذا لا تعني أنّ الإنسان يستغني عن التربية والتعليم في تنمية هذا الشعور الفطريّ، فالتربية والتعليم يعملان على تنمية الشعور الفطريّ من دون إيجاده في النفس البشريّة.

**٣ - المعيار الثالث (العموم والاشتراك):** الشعور الفطريّ كلِّيٌّ وعامٌّ لجميع أفراد البشر في كلّ زمان ومكان، فأي شعور فطري هو ثابت على امتداد التاريخ وفي كل حضارة ومنطقة وبلد، فهو مشترك بين الناس جميعًا، فكلّ أفراد النوع الإنسانيِّ يتحرّكون بالفطرة لدفع الضرر عن أنفسهم، فإذا رأى الإنسان حيوانًا مفترسًا كالأسد يهاجمه نراه يلوذ فطريًّا بالفرار.

**٤ - المعيار الرابع (الثبات وعدم التغيّر):** الشعور الفطريّ غير قابل للتبدل والتغير من حال إلى حال، فهو ثابت ودائم ومستمر. نعم، قد تلعب بعض الظروف والعوامل في دفن المشاعر الفطريّة في منطقة الغفلة، ولكن سرعان ما تطفو على السطح عند أي مُنبّه يوقظ في داخل الإنسان ذلك الشعور.

● **ثالثًا: تطبيق مؤشّرات الفطرة ومعاييرها على قضية: الله موجود:**

والآن لنقمْ بتطبيق هذه المعايير الأربعة على قضية: الله موجود، نحن ندّعي بأنّ: الشعور بالله, تعالى, والانجذاب إليه فطريٌّ داخل النفس البشريّة، بمعنى أنّ الإنسان مركّب بكيفية خاصة ينجذب معها إلى القوة العظمى في الكون.

والدليل على ذلك: أنّنا لو تتبّعنا عقائد الشعوب المختلفة على امتداد تاريخ البشريّ الطويل، سواء أكانت الحضارة التي ينتمون إليها ماديّة أم روحيّة، وثنيّة أم موحِّدة... نجد أن البشريّة بمختلف أديانها ومذاهبها وتياراتها تعيش انجذابًا خاصًّا إلى عالم الألوهية والعبادة والشعور الدينيّ.

ولو ركّزنا النظر على النقطة المشتركة بين هذه العقائد وأغفلنا النظر إلى التفاصيل، نلاحظ أنّ فكرة القوة العظمى في هذا الكون ، ليس تجسيدًا لعقيدة دينيّة أو إسلامية خاصّة، بل هي عقيدة عامة عند جميع أبناء البشر.

فهذه المُحدّدات: (عالمية الشعور بوجود قوة عظمى في هذا الكون عند الأفراد، وفي كل زمان ومكان، بنحو غير قابل للتبديل والتغيير) تدلّ بوضوح على فطرية الإيمان بوجود الله والشعور به.

يقول معجم لاروس للقرن العشرين: «إنّ الغريزة الدينيّة مشتركة بين كلّ

الأجناس البشريّة، حتى أشدها همجيّة، وأقربها إلى الحياة الحيوانيّة... وإنّ الاهتمام بالمعنى الإلهيّ وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية»[1].

فنحن نعتقد أنّ الله, تعالى, خلق النفس البشريّة بكيفيّة خاصّة، تعيش الجذبة إلى الله, تعالى, والشعور بعظمته وقوته، وكما أنّ النفس البشريّة مصمّمة بطريقة تنجذب فيها إلى الله,تعالى، كذلك هي مُصمَّمة على أنّ المجذوب إليه بحسب الفطرة هو واحد لا متعدّد، فالإلحاد والشرك والتثليث... على خلاف مقتضى الفطرة البشريّة السليمة. وهذا ما أكّده القرآن الكريم ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * ... وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[الروم: ٣٠-٣١].

وكذلك أحاديث النبيّ وأئمة أهل البيت, عليهم السلام، منها:

■ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «كلّ مَوْلُودٍ يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه أوْ يُنَصِّرَانِه، أوْ يُمَجِّسَانِه...»[2].

■ وعن الإمام الصادق, عليه السلام، قال: «قال موسى بن عمران (ع): يا ربِّ، أيّ الأعمال أفضل عندك؟ فقال (عزّ وجلّ): حبّ الأطفال، فإنيّ

١ - نقلاً عن: عبد الله دراز، الدين- بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص٨٣.
٢ - البخاري، صحيح البخاريّ، ج٢، ص١٠٤. وروي عن الإمام الصادق عليه السلام، الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٤٩، ح١٦٦٨.

فطرتهم على توحيدي، فإنْ أَمَتُّهُم أَدْخَلْتُهم برحمتي الجنّة»[١].

فـإذا وجدنا هـذه المُحـدِّدات الأربعـة (الـضرورة، العمـوم، الثبات، اللااكتساب) في شعور ما، فنعرف أنّه فطري.

## ● رابعًـا: معرفـة الله الفطريّة في القـرآن وأحاديث أهل البيت, عليهم السّلام

تقدّم ما يفيد في الفقرات السـابقة أنّ الروايات تؤكّد معرفة الله الفطريّة، ونزيد عليها:

١. ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيرَ مُشرِكِينَ بِهِۦ﴾[الحج: ٣١]

سـأل زرارة بـن أعـين الإمـام الصـادق عن هـذه الآيـة، فقـال (عليه السـلام):»الحنيفيّة من الفطرة التي فطـر اللّه النّاس عليها، لا تبديل لخلق اللّه. قال: فطرهم على المعرفة به.

٢. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[لقمان: ٢٥]

وعـن الإمام الصـادق, عليه السـلام: قال رسـول اللّه, صـلّى اللّه عليه وآله وسـلّم: كلّ مولود يُولَد على الفطرة، يعنـي المعرفة بأنّ اللّه عزّ وجلّ خالقه، كذلك قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٢].

---

١ - البرقي، المحاسن، ج١، ص٢٩٣.
٢ - الكليني، الكافي، ج٢، ص١٢.

٣. ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[الروم: ٣٠]

وعن زرارة، سأل الإمام الصادق عن الآية، فقال عليه السلام: فطرهم على معرفة أنّه ربّهم، ولولا ذلك لم يعلموا -إذا سُئلوا- من ربّهم، ولا من رازقهم»[1].

٤. ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف: ١٧٢].

عن الأصبغ بن نباتة، عن علي، عليه السلام قال: أتاه ابن الكوّاء (عبد الله بن عمرو اليشكري، من الخوارج) فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن الله تبارك وتعالى: هل كلَّم أحدًا من وُلْد آدم قبل موسى (عليهما السّلام)؟

فقال علي (ع): قد كلَّم الله جميع خلقه، برّهم وفاجرهم، وردّوا عليه الجواب. فثَقُل ذلك على ابن الكوّاء، ولم يعرفه، فقال له: كيف كان ذلك؟ يا أمير المؤمنين.

فقال (ع) له: أوَمَا تقرأ كتاب الله! إذ يقول لنبيه (ص): ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ﴾، فقد أسمعهم كلامه، وردّوا عليه الجواب كما تسمع في قول الله - يا بن الكوّاء -: (قالوا بلى).

---

١ - البرقي، المحاسن، ج١، ص٢٤١.

فقال لهم: إنيّ أنا الله لا إله إلا أنا، وأنا الرّحمن، فأَقرُّوا له بالطّاعة والربوبيّة، وميَّز الرّسل والأنبياء والأوصياء، وأمر الخلق بطاعتهم، فأَقرُّوا بذلك في الميثاق، فقالت الملائكة عند إقرارهم بذلك: شهدنا عليكم يا بني آدم أن تقولوا يوم القيامة إنّا كُنّا عن هذا غافلين»[١].

وفي الآية عن أبي جعفر الباقر، عليه السلام: «... فقال الله: يا آدم، هؤلاء ذريّتك، أخرجتهم من ظهرك، لآخذ عليهم الميثاق لي بالربوبيّة، ولمحمد بالنبوة، كما آخذه عليهم في السماء (...)

قال آدم: يا ربِّ، فما تريد منهم في الميثاق؟

قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وأن لا يشركوا بي شيئًا...**﴾[٢].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) في الآية: «ثَبتت المعرفة في قلوبهم، ونسوا الموقف، وسيذكرونه يومًا، ولولا ذلك لم يدرِ أحدٌ من خالقه ولا من رازقه»[٣]. وعن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السّلام في الآية: قال عليه السلام: «كان ذلك معاينة لله، فأنساهم المعاينة، وأثبت الإقرار في صدورهم، ولولا ذلك ما عرف أحدٌ خالقه ولا رازقه، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾[لقمان: ٢٥][٤].

---

١ - العياشي، تفسير العياشي، ج٢، ص٤١.
٢ - العياشي، تفسير العياشي، ج٢، ص٢١٩.
٣ - البرقي، المحاسن، ج١، ص٢٤١.
٤ - البرقي، المحاسن، ج١، ص٢٨١.

وقد أطلقت بعض الآيات على «الفطرة التوحيديَّة» اسم: «صبغة الله»، قال تعالى: ﴿**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ**﴾[البقرة: ١٣٨].

فالإنسان مخلوق بلون خاصّ من الميول والمعارف الممزوجة في جوهر ذاته، وليس كائنًا بلا لون وبلا صبغة، ومن أهمّ الميول الفطريّة التي تلوّنت وصُبغت بها نفس الإنسان بأصل التكوين، هي المعرفة بالله تعالى وتوحيده[١].

**في المحصّلة يتبيّن مما تقدّم، أنّ:**

١. معرفة أصل وجود الله، تعالى، فطريّة مجبولة في داخل الإنسان بأصل الخلقة والتكوين.

٢. التوحيد -بمعنى الانجذاب إلى كون الخالق والرازق والمغيث والقادر على تلبية الحوائج هو واحد- أمر فطري في النفس البشريّة.

٣. هذه المعرفة «الفطريّة التوحيديّة» ليست من سنخ المعارف الاختيارية التي تحصل بالكسب والتثاقف والتعليم، بل هي معرفة قهرية اضطراريّة ثابتة مستمرّة الحضور، وبالتالي لا يمكن انتزاعها من النفس البشريّة. عن الحسن بن زياد قال: «سألت أبا عبد الله, عليه السّلام ,عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[الحجرات: ٧]، هل للعباد بما حبّب صنع؟ قال عليه السلام: لا، ولا كرامة»[٢].

---

١ - يراجع حول روايات صبغة الله: الكليني، الكافي، ج٢، ص١٤.
٢ - البرقي، المحاسن، ج١، ص١٩٩.

## ● خامسًا: ادّعاء الإلحاد الواقعي: أكذب أم وهمٌ أو مرضٌ نفسيّ؟

وفي هذا السياق، نلاحظ أنّه مهما حاول الإنسان دسّ الفطرة التوحيديّة في تراب الانغماس في اللذائذ الماديّة والمتعة الحسيّة، فإنّها تطفو على السطح وتظهر بين حين وآخر، خصوصًا في لحظات الشدائد والضعف والانكسار والشعور بالخوف والحاجة و... والتي تشكّل منبِّهات لإثارة الفطرة وإيقاظها من غفلتها، بنحو لا يستطيع الإنسان أن يحافظ على عنصر الغفلة عن معرفة الله دائمًا ﴿**أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾.

فالمُلحد يغفل عن وجود الله، فيُنكره، وفي الوقت عينه، نراه عندما تحلّ به المصائب والبلايا وتتقطع به الأسباب، يلجأ إلى الله تعالى.

وهذا ما ورد في القصّة المشهورة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال له رجل: «يا ابن رسول اللّه، دلّني على اللّه ما هو؟ فقد أكثر عَليّ المجادلون وحيَّروني.

فقال له: يا عبد اللّه، هل ركبت سفينة قط؟

قال: نعم.

قال: فهل كُسِرت بكّ حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟

قال: نعم.

قال: فهل تعلَّق قلبُك هنالك أنّ شيئًا من الأشياء قادر على أن يُخلصّك من ورطتك؟

قال: نعم.

قـال الصّادق عليه السّـلام: فذلك الشّيء هو اللّـه، القادر على الإنجاء حيث لا مُنجي، وعلى الإغاثة حيث لا مُغيث»[١].

وورد في هذا السـياق، عن الإمام الحسن العسـكريّ عليه السّلام: «اللّه هو الذي يَتألَّه إليه عند الحوائج والشّـدائد كلّ مخلوق عند انقطاع الرّجاء من كلّ مَنْ دونه وتَقطُّعِ الأسباب من جميع من سواه»[٢].

فالعقل السـليم يحكم باسـتحالة وجـود المُلحد الواقعي مـن الناحية الفطريّـة، لأنّ الإلحاد عبارة عن إنكار وجـود الله,تعالى، والإنكار يمكن أن يقـع على شيء هـو خارج دائرة الفطـرة والاضطرار، أمّـا ما هو فطري واضطـراريّ فإنّ إنـكاره مكابرة وجحود وعناد، وبمجرد اللسـان واللفظ، كالخائـف الذي ينكر خوفه ليثبت أنّه شـجاع، أو كالذي يحب فتاة وينكر حبّها دفعًا للحرج...

والمُشـاهَد من حال الملحد أنّـه لا ينفي وجود اللّه تعـالى نفيًا مُطلَقًا في جميـع مراحل حياته وأحوالـه، بل يمرّ الملحد بلحظات يشـعر فيها بجذبة العشق الفطريّة إلى اللّه تعالى خصوصًا في حالات عجز الأسباب الماديّة عن تحقيق مطلوبه -كما تقدّم سابقًا-، وهذا ما يحدِّثنا عنه القرآن الكريم في أمثلة عديدة، كقوله تعالى: ﴿**هوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى**

١ - الصدوق، معاني الأخبار، ص٥.
٢ - الصدوق، التوحيد، ص٢٣١.

**الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كلّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[يونس:٢٢-٢٣].

ولاحظنا سابقًا أيضًا جواب الإمام الصّادق عليه السّلام على الذي سأله: دلني على الله ما هو؟ بما يشابه هذا المنطق القرآني، فكلّ إنسان في لحظات الخطر والخوف والألم المقرونة باليأس عمّا في يديه من الوسائل الطبيعيّة والأسباب الماديّة، تتنبّه فطرته لوجود اللّه تعالى القادر على الإنجاء والإغاثة و... فنفي الملحد لوجود اللّه تعالى في حقيقة الأمر هو إنكار ظاهري، وليد عوامل نفسيّة كثيرة، منها:

■ الميل إلى الراحة والتحرّر من الالتزامات والمسؤوليّات التي يفرضها الانتماء الدِّيني ﴿**بل يريد الإنسان ليفجر أمامه* يسأل أيان يوم القيامة**﴾[القيامة:٥-٦].

■ التربية الوالديّة التي تلعب دورًا مهمًا في جعل الإنسان يخرج عن فطرته التوحيديّة، ففي الحديث النّبوي: «كلُّ مولود يولَد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصِّرانه»[١].

١ - المجلسيّ، بحار الأنوار، ج٣، ص٢٨١.

■ التأثّـر بالعوامـل الخارجية كالبيئة الثقافيّـة والحضارية والاجتماعيّة العامّة، فالإنسان قد يقع أسير التيارات المنحرفة. كلّ هذه العوامل وغيرها تحجب نور الفطرة.

وفي الختـام، نقول: صحيح أنّ اللّه سـبحانه وتعالى جعل الدِّين فطريًّا، لكـن في الوقت عينه خلقَ الإنسـانَ مختارًا يتمتّع بحريّـة الإرادة، ففطريّة الدِّيـن لا تدفع الإنسـان نحـو الاعتقاد بـه أو الالتـزام بتعاليمه على نحو الاضطرار والإكراه ﴿**لا إكـراه فى الدِّين**﴾[البقرة: ٢٥٦]، بل تبقى النّفس البشريّـة بالمشـيئة أمام الإيمـان والكفر والفجـور والتقوى، فباسـتطاعة الإنسـان أن يختار ما يتعارض مع الفطـرة، ولا يكون ذلك دليلاً على عدم فطريّته واقعًا.

# الفصل الثالث:

## نظريَّات الملحدين في تفسير الإيمان باللّه، تعالى

## المبحث الأوّل:
## الإيمان بالله ينشأ من الجهل بالظواهر الطبيعية

### ● أوّلًا: شبهة أنّ الإيمان بالله نتيجة الجهل:

تعتقد هذه الأطروحة التي يؤمن بها الملاحدة، منذ عهد أوجست كونت، مرورًا بالماركسيَّة، وبرتراند رسل، وريتشارد دوكنز وستيفن هوكنغ... أنّ الاعتقاد بوجود الله وليدة عجز الإنسان القديم عن تفسير الظّواهر الطّبيعيّة وعدم امتلاكه الأدوات العلمية اللازمة لفهمها، كالأمراض وتنوّع الفصول والخسوف والكسوف والمدّ والجزر والزلازل والبراكين والفياضانات والعواصف والصّواعق...، فأمام ما يعتريه من الحَيْرة ونوبة الجهل، يختلق عقله كائنًا فوق الطّبيعة «الإله»، يُسند هذه الظواهر إليه، وتناقلت الأجيال بالتثاقف هذه العقيدة أبًا عن جدّ، وأصبحت أيديولوجيا متمكِّنة من نفوس البشر.

يقول ستيفن هوكنغ: «إنّ جهل البشر في القِدَم بطرق الطبيعة، أدّى بهم إلى اختراع آلهة تُعزى إليها كلّ مناحي الحياة البشريّة».

وفي «زمن العلم»، أي عصر اعتماد الإنسان على المنهج الاستقرائيّ والتجريبي القائم على أساس الملاحظة الحسيّة في فهم الطبيعة، واكتشاف الأسباب الطبيعية للظواهر والعلاقات القائمة بينها، لم يعد ثمة حاجة إلى

الإيمان بالإله لأنّه مجرّد خرافة وتفسير أسطوريّ للظواهر الطبيعيَّة[١].

ففـي ضوء هذه الرؤية، إنّ االله تعالى هو x المجهول في معادلة الكون، نبحث عنه لتغليف جهلنا، بإسـناد العلل المجهولة إليه، فإذا تمّ اكتشـاف القوانين الطبيعيَّة أدى ذلك إلى تراجع الله خطوة إلى الوراء، بعد أن يكون قد اسـتنفد غرض الإيمـان به، أو -كما نقل فلاماريـون عن كونت- يؤدي العلـم إلى عزل أبي الطبيعة -أي الله- عـن عمله، بعد أن يكون قد قدّر له خدماته المؤقَّتة!!

هذه النظرة تقوم على أسـاس أنّ العلاقة بـين الله, تعالى, والكون علاقة أفقيّة خاضعة لعلم الإنسـان وجهله، فاللّه, تعالى, يقف على خطّ موازٍ مع العلل الطبيعيَّـة، فيقع الترديد بينه وبينها، من أنّ هذه الظاهرة هي إمّا صنع الله وإمّا العلة الطبيعيَّة المعيّنة، فإذا اكتشفنا العلة الطبيعيَّة انعزل الله تعالى عن عمله[٢]!!

وممن تبنى وجهة النظر هذه أيضًا، الفيلسـوف الماركسي جورج بولتزر، حيـث يقـول: «إنَّ الدّيانة لمّـا كانت تتولَّد مـن الجهل فإنّهـا تُحِل محلّ التّفسيرات العلميّة تفسيراتٍ خياليّة، فتَعمل بذلك على ستر الواقع وإسدال السّتار على التفسير الموضوعي للظواهر، ولهذا كان الرّجل المتديِّن مُناوئًا

١ - انظر: ماشيري، كونت الفلسفة والعلوم، ص١٧-٣٩. وج. بنروبي، مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا، ج١، ص١٣.
٢ - نقلاً عن: مطهري، الدوافع نحو المادية، ص٣٢.

لمبادئ العلم التي هي من عمل الشّيطان، لأنه حريصٌ على أوهامه»[١].

إذًا ينبغي انسحاب الإيمان بالله عن الساحة البشريّة ليخلي المكان للعلم[٢]، فالإنسان يتمكّن بوساطة العلم من حلّ مشكلاته وإدارة حياته وتحقيق سعادته، ووفق قول أرنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢) في كتابه «مستقبل العلم» : إنّ العلم هو الذي يقدّم إلى الإنسان الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها أن يصلح أحواله والشيء الذي لا تستطيع أن تعيش بدونه، أي الرمز والناموس.

وكما ذكرنا سابقًا، لقد حاولت نزعة الإلحاد تصوير وجود تناقض جذريّ بين المنهج العلميّ - التجريبيّ والإيمان بالله. يقول ريشتارد دوكنز: «لقد طرد دارون الإله من البيولوجيا، ولكنّ الوضع في الفيزياء بقي أقل وضوحًا، ويُسدّد هوكينج الضربة القاضية الآن»[٣].

## ● ثانيًا: الإيمان بالله، تعالى، لا يتعارض مع التفسير العلميِّ للظواهر الطبيعيَّة:

نعتقد أنّ هذه النظرة سطحية وحمقاء، لأنّ العلاقة بين الله تعالى والكون غير خاضعة لعلم الإنسان وجهله، وأنّه لا تعارض بين اكتشاف

١ - جورج بوليتزر، وجي بيس وموريس كافين، أصول الفلسفة الماركسية، ج١، ص٢٠٨.
٢ - كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص٣٧٠.
٣ - نقلاً عن: أبو لحية، الكون بين التوحيد والإلحاد، ص٨٢.

العلــة الطبيعيَّة وبين كون الله,, تعالى هو الذي أعطــى هذه العلة الطبيعيَّة قدرتها على التأثير فيما تؤثّر فيه، فالله تعالى هو الذي أرسل الرياح لواقح، والله, تعالى, هو الذي أرسل الرياح فتثير السحاب فيهطل المطر فيُحيي به الأرض، والله تعالى هو الذي أعطى النار قدرتها على الإحراق، فهو الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى، فهذه الأســباب الطبيعيَّة تستمدّ عليّتها من عليّته، وســببيّتها من ســببيّته تعالى، فهو مســبّب الأسباب، وأبى أن يجري الكون إلا ضمن نظام الســببيّة، والمدبّرات أمرًا، فالأســباب تؤثر فيما تؤثر فيه بإذنه تعالى، فالظواهر في عين انتســابها إلى عللها الطبيعيَّة تســتند إلى الله تعالى خالقها ومسببها.

فالعجب في هذه الأطروحة يكمن فيما تدّعيه من التعارض بين اكتشــاف السّبب الماديّ لظاهرة طبيعيّة ما وبين الاعتقاد بأنّ سببها هو الله,تعالى، لأنّه كلّما تقدّم العلــم خطوة إلى الأمام ينبغي أن يتراجع الإله خطوة إلى الوراء، فإذا كان السّبب الماديّ معروفًا فإنّ نسبة الظّاهرة إلى اللّه جهل وتخلّف.

لكــن في الحقيقــة، إنّ العقل البــشريّ لا يرى تناقضًا في وجود ســببين لظاهــرة ماديّة معيّنة: السّــبب الأول: مادي محســوس، ككــون النّار علّة لارتفاع درجة حرارة الماء ومن ثمّ الغليان.

والسّــبب الثاني: غيبيٌّ، وهو القدرة الإلهيَّة التي سبّبت الأسباب بحيث يؤثر موجود في موجود آخــر بإذن الله,تعالى، فاللّه تعالى هو الذي أعطى النّار سببيّتها لارتفاع درجة حرارة الماء.

عـن الإمام الصّـادق, عليه السّـلام: «... أبى اللّه أن يجري الأشـياء إلّا بأسباب، فجعل لكلٍّ شيء سببًا»[١].

والقـرآن الكريم يؤكّد هـذه الحقيقة التكوينيّة، قال تعـالى: ﴿**اللّه الذى يرسـل الرّياح فتثير سـحابًا**﴾[الرّوم: ٤٨]، فأسـند القرآن إثارة السّحاب إلى الرّياح، وذلك ضمن قانون السّـببيّة. وقال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلَ مِنْ السّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ**﴾[البقرة: ٢٢]، والباء في «فأخرج به» للسـببيّة، والضّمير يرجع إلى الماء. فالسـببيّة بين الموجودات الماديّة أمرٌ يؤكّده القرآن الكريم والعقل السـليم، لكن لا بمعنى تأثيرها على نحو الاستقلال، بل هي تابعة لمشيئة اللّه تعالى وإرادته.

فهـذه الفكـرة أيضًا من السّـخافة بمكان، لأنه لا يوجـد أدنى تلازم بين اكتشاف القوانين الحاكمة على الطّبيعة وبين نقص الإيمان بالله,تعالى، إذ الإيمـان باللّه تعالى لا يلغي الاعتقاد أن هذا الكون يعمل في ضوء قوانين طبيعيّة يمتلك الإنسان القدرة على اكتشافها والوصول إليها.

● **ثالثًا: الإيمان بالله تعالى يحثّ على اكتشاف أسرار الطبيعة:** ﴿**سَـنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَـهِيدٌ**﴾[فصّلت: ٥٣]. وقال تعالى:

---

١ - الكليني، الكافي، ج١، ص١٨٣.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢٠ ٢١].

وقد حثّ الدِّين الحقّ الإنسانَ على اكتشاف أسرار الطّبيعة والقوانين الحاكمة عليها بوساطة منهج الملاحظة الحسيّة، والتدبّر والتفكّر والنّظر... في الآيات الآفاقية (الجبال والرّياح والسحاب والبحار والسّماء والكواكب والنّجوم والنباتات والحيوانات كالنحل والإبل، ...)، كقوله تعالى: (إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)[١].

فذلك يجعل الإنسان يتعرّف على الله بوساطة القوانين الكونيّة وعجيب صنع الظواهر الطبيعيَّة، ويعبرّ عن ذلك أمير المؤمنين, عليه السّلام, في خطبة له، حيث يقول: «كفى بإتقان الصنع لها (أي للأشياء والمخلوقات) آية»[٢].

ويكفي هذا النصّ عن أمير المؤمنين, عليه السلام، قال: «... أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَه وأَتْقَنَ تَرْكِيبَه وفَلَقَ لَه السَّمْعَ والْبَصَرَ وسَوَّى لَه الْعَظْمَ والْبَشَرَ، انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، ولَطَافَةِ هَيْئَتِهَا،

١ - راجع: سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
٢ - الصدوق، التوحيد، ص٧١.

لَا تَـكَادُ تُنَالُ بلَحْظ الْبَصَر، ولَا بمُسْـتَدْرَك الْفكَر،كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضهَا، وصُبَّتْ عَلَى رزْقهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرهَا، وتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا، تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لبَرْدهَا، وفِي وِرْدهَا لصَدَرهَا، مَكْفُولٌ برزْقهَا مَرْزُوقَةٌ بوفْقهَا، لَا يُغْفلُهَا الْمَنَّـانُ ولَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، ولَوْ فِي الصَّفَـا الْيَابسِ والْحَجَرِ الْجَامسِ، ولَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلهَا فِي عُلْوهَا وسُـفْلهَا، ومَا فِي الْجَوْف منْ شَرَاسيف بَطْنهَـا، ومَا فِي الرَّأْس منْ عَيْنهَـا وأُذُنهَا، لَقَضَيْتَ منْ خَلْقهَا عَجَباً، ولَقيتَ مـنْ وَصْفهَا تَعَباً، فَتَعَالَى الَّذي أَقَامَهَا عَـلَى قَوَائمهَا، وبَنَاهَا عَلَى دَعَائمهَا، لَـمْ يَشْرَكْـه فِي فطْرَتهَا فَاطرٌ، ولَـمْ يُعنْه عَلَى خَلْقهَا قَـادرٌ، ولَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهب فكْرِكَ لتَبْلُغَ غَايَاته مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطرَ النَّمْلَة هُوَ فَاطرُ النَّخْلَة، لدَقيق تَفْصيل كلّ شَيْءٍ، وغَامض اخْتلَاف كلّ حَيٍّ، ومَا الْجَليلُ واللَّطيفُ والثَّقيلُ والْخَفيفُ والْقَويُّ والضَّعيفُ فِي خَلْقه إِلَّا سَوَاءٌ.

وكَذَلكَ السَّـمَاءُ والْهَـوَاءُ والرِّيَاحُ والْـمَاءُ، فَانْظُرْ إِلَى الشَّـمْس والْقَمَر، والنَّبَات والشَّـجَر، والْمَاء والْحَجَر، واخْتلَاف هَذَا اللَّيْـل والنَّهَار، وتَفَجُّر هَذه الْبحَـار، وكَثْرَة هَذه الْجبَال، وطُول هَذه الْقـلَال، وتَفَرُّق هَذه اللُّغَات والأَلْسُن الْمُخْتَلفَات، فَالْوَيْلُ لمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ وجَحَدَ الْمُدَبِّرَ، زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَـات مَا لَهُمْ زَارِعٌ، ولَا لاخْتلَاف صُوَرهمْ صَانعٌ، ولَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّة فِيمَا ادَّعَوْا، ولَا تَحْقيق لِمَا أَوْعَوْا، وهَلْ يَكُونُ بنَاءٌ منْ غَيْر بَانٍ؟!...»[1].

١ - الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، ص٢٧٠-٢٧١، الخطبة: ١٨٥..

وليس العلم التجريبي إلّا اكتشاف قوانين الطّبيعة والسّنن الحاكمة عليها لتسخيرها في خدمة الإنسان.

ويحفّـز الإيمـان بالله, تعالى, الإنسـان عـلى التقدّم في البعـد الماديّ والطّبيعي وعمارة الأرض والاسـتثمار الإيجابي فيها، ﴿**هُوَ أَنشَـأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾[هود:٦١].

## المبحث الثاني:
## الإيمان بالله يتعارض مع التقّدم والتطوّر

### ● أوّلًا: دور بعض المتديّنين في التنفير لا التبشير

ثمة أمر مهمّ لا يمكن إنـكاره، وهو أنّ بعض المتديّنين يُقدِّمون نموذجًا سيئًا عن التديّن، ينفّر الشباب من الدّين كدين، إذْ إنّ الشابّ عادة لا يمكنه التمييز بين الدّين في ذاته كرسالة إلهيَّة معصومة، وبين الممارسات الدينيّة، فيُسري حكم الممارسـة على الدّين نفسه، فيعتقد أنّ الدين هو الذي يدعو هذا الشـخص أو ذاك إلى هذه الممارسـة التي لا تمـتّ إلى الدين بصلة، فالدّين بريء من كثير من الممارسات التي يقوم بها بعضهم باسمه، كما أنّه بريء من الكثير من الاتّهامات التي تُنسَـب إليه وتُلصَق به لتشـويه صورته الصافية النقيّة.

فقد لاحظنا -مثلاً- بقراءة تاريخ الغرب الاستبداد الدينيّ الذي مارسته الكنيسة ضدّ الإنسان الأوروبيّ ولَّد ردّة فعل عنيفة وعدائيّة عنده ضدّ الألوهية والدّين عامّة، من باب سراية حكم أحد المتّحدَيْن إلى المتّحد الآخر، نتيجة عدم التمييز بين الدين ممارسةً بشريّة وبين الدين عقيدةً تؤمن بوجود صانع وخالق للكون، فأدت الثورة على الأول ورفضه إلى رفض الثاني، مع أنّه لا علاقة منطقية بين الأمرين، بل هي مجرّد حالة نفسيّة، وقد أشار إلى ذلك الشهيد مرتضى مطهري في كتابه: «الدوافع نحو المادية»، وكذلك الكاتبة زينب عبد العزيز في كتابها «الإلحاد وأسبابه: التاريخ الأسود للكنيسة»، فقد أثبتت أنّ الاستبداد الديني في العصور الوسطى أدّى إلى انتشار الإلحاد ونزعة التمرّد على الدّين، إلى درجة تحوّل معها الإلحاد إلى حالة نضاليّة لمذهب الإنسانيَّة (Humanism) في صراعه مع المذهب الكنسيّ.

ومن هنا، في مكان ما، نؤيّد من يعتقد أنّ المواجهة مع الملحدين لا تقتصر على عالم الأفكار والعقيدة، بل تتجاوزه إلى إثبات كون الدين قادرًا على الحفاظ على كرامة الإنسان وتحريره من أثقال العبودية والقهر والظلم والحرمان و... وأنّ الدين يواكب حاجات الإنسان ومتطلباته في كلّ زمان ومكان، وأنّه هو القادر على قيادة الحياة البشريّة نحو سعادتها وكمالها وتقدّمها ورقيّها، هذا الإثبات الذي لا يمكن تقديمه بوساطة التنظير الفكريّ فقط، بل بالممارسة العمليّة، بأن يرى الناس ذلك في النماذج

الحسيّة وسلوك المتديّنين، كما ورد في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام: كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، وذلك بأن يرى الناس من المتديّن الورع والصدق والأمانة والخير، فإنّ ذلك داعية[١].

فقد رأينا بعض الشباب يبتعد عن الدّين والألوهية، لا بسبب قناعة ذاتية وبحث معمّق، ولا بسبب إنكار الألوهية على المستوى العقلي والقلبيّ، بل بدأت رحلته على طريق الإلحاد من رؤيته أنّ الدّين غير قادر على تلبية حاجات الإنسان المعاصر، وأنّ الدّين يناهض التقدّم والتطور والعلم والتكنولوجيا... ومن رؤيته أنّ أسلوب بعض المتديّنين هو التنفير لا التبشير، أي يتحرّكون في حياتهم على خلاف وصية رسول الله، صلّى الله عليه وآله وسلّم، عندما أمر عليًّا, عليه السّلام, ومعاذًا أن يسيرا إلى اليمن، فقال: «انطلقا، فبشّرا، ولا تُنفِّرا»[٢]،

## ● ثانيًا: المقارنة بين المجتمعات المُلحِدة والمجتمعات الإيمانيّة:

في هذا السياق، يطرح أصحاب الاتجاه الإلحاديّ شبهات عدّة، منها:

١ - **الشُّبهة الأولى:** أنّه عندما نقوم بالمقارنة بين المجتمعات الغربيّة الملحدة من جهة، وبين المجتمعات المتديّنة، نلاحظ أن المجتمعات

١ - انظر: الكليني، الكافي، ج٢، ص٦٤. والحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١، ص٧٦.
٢ - الريشهري، ميزان الحكمة ، ج١، ص٢٩٤.

الإلحاديّة أكثر تقدّمًا، وليس ذلك إلّا لأنّ الدِّين هو المانع عن تقدّمها وسبب تخلّفها، فالتقدّم إنّما يتحقّق بالتحرّر من سلطة الأساطير والخرافات الدِّينيّة.

**٢ - الشُّبهة الثّانية:** أنّ المجتمعات الملحدة التي تحرّرت من سلطة الدّين على الحياة، تتعهّد بتأمين رفاهيَّة الإنسان، من السّكن وفرص العمل والطّبابة والضّمان الصّحي و... بينما المجتمعات الدِّينية لا تقوم بذلك.

وبعبارة مفصّلة: يُلاحِظ الإنسان عند قيامه بعمليّة مقارنة بين المجتمعات المتديّنة والمجتمعات الغربيّة الملحدة، أنّ الأولى أقلّ تطوّرًا وأكثر تخلّفًا، فنظرةٌ فاحصة إلى المجتمعات الثّانية تُظهِر لنا التقدّم الهائل في المعارف الإنسانيَّة والعلوم الطبيعيَّة، والتطوّر في الصّناعات التقنية والآلات الحديثة كالأقمار الصّناعية والقطارات والحواسيب والطّائرات...، والمصانع الضّخمة ومعامل الإنتاج، والازدهار العمراني في الأبنية الشّاهقة وتصميم الطّرقات والجسور والأنفاق...، وتطوّر العلوم الطّبيّة ونظام الصّحة والاستشفاء، وتقديم أفضل أنواع الخدمات التعليميّة في المدارس والجامعات، والقوانين الوضعيّة التي تمنح المواطن حقّه في الأمن والعمل والسّكن وضمان الشيخوخة وحرية التعبير عن الرأي والمشاركة في الحياة السّياسية العامة... إلخ. في المقابل، نظرة خاطفة إلى المجتمعات الدِّينيّة ترسم في أذهاننا انطباعًا مغايرًا، حيث الفقر والتّخلّف والفوضى والبطالة والجهل و...

وما تمكّنت المجتمعات الغربيّة من بناء هذا اللون من النّموذج الحضاري إلّا بسبب تمسّكها بالعلوم التجريبيَّة والتحرّر من سلطة الكنيسة والدّين، فانطلقَت بالعلم لاكتشاف أسرار الطّبيعة وتسخيرها لخدمة الإنسان وسعادته ورفاهيَّته، بينما بقيت المجتمعات الدِّينيّة أسيرة تقديس التصوّرات الدِّينيّة التقليديّة عن الطّبيعة والاعتقاد بالإله والمعجزات والملائكة والجنّ و... وتمجيد الزّهد والقناعة وتحقير الدّنيا... فقعدت عن التمسّك بمنجزات العلم الحديث لكونها تعارض الدِّين، فأصيبت بالعجز والشّلل عن الارتقاء في معارج التقدّم الحضاري، فالإيمان بالله يشكِّل مانعًا عن تقدّم الحياة الإنسانيَّة.

ولن تتمكّن المجتمعات المتديّنة من الالتحاق بقافلة الحضارة إلّا بأمرين:

**الأول:** التحرّر من سلطة الإيمان بالله، والتّخلي عن تلك التّصوّرات الأسطوريّة عن الكون والطبيعة والإنسان...

**والثاني:** تَبنِّي النّظرة العلميّة إلى الإنسان والطّبيعة والوجود والمادة.

وهذه المشكلة، هي التي كانت تؤرّق ذهن الشهيد السيد محمد باقر الصدر، ولذلك نلاحظه أنّه في مقدّمة كتاب «فلسفتنا»، مع أنّه دراسة موضوعيّة في معترك الصراع الفكري القائم بين مختلف التيارات الفلسفيّة وخاصة الفلسفة الإسلامية والمادية الديالكتيكيَّة (الماركسيَّة) التي تمثّل التيار الإلحاديّ في ذلك الزمان، إلّا أنّه يشير إلى أنّ أساس المشكلة هي

المسألة الاجتماعيّة، لذا يقول الشهيد الصدر: « المسألة الاجتماعيّة مشكلة العالم التي تملأ فكر الإنسانيَّة اليوم، وتمسُّ واقعها بالصميم هي مشكلة النظام الاجتماعيّ التي تتلخّص في محاولة إعطاء أصدق إجابة عن السؤال الآتي: ما هو النظام الذي يصلح للإنسانية وتسعد به في حياتها الاجتماعيّة؟

ومن الطبيعي أن تحتل هذه المشكلة مقامها الخطير، وأن تكون في تعقيدها وتنوع ألوان الاجتهاد في حلّها مصدرًا للخطر على الإنسانيَّة ذاتها، لأنَّ النظام داخل في حساب الحياة الإنسانيَّة ومؤثِّر في كيانها الاجتماعيّ في الصميم.

وهذه المشكلة عميقة الجذور في الأغوار البعيدة من تاريخ البشريّة، وقد واجهها الإنسان منذ نشأت في واقع الحياة الاجتماعيّة، وانبثقت الإنسانيَّة الجماعية تتمثل في عدة أفراد تجمعهم علاقات وروابط مشتركة. فإن هذه العلاقات التي تكونت تحقيقًا لمتطلبات الفطرة والطبيعة في حاجة بطبيعة الحال إلى توجيه وتنظيم، وعلى مدى انسجام هذا التنظيم مع الواقع الإنساني ومصالحه يتوقف استقرار المجتمع وسعادته»[1].

● **ثالثًا: الإيمان بالله تعالى يصنع الحضارة الإنسانيَّة النموذجيّة:**

النقطة الأولى التي أودّ تسليط الضوء عليها، هي أن نحاول معًا تخايل شكل الحضارة الإنسانيَّة والعالم اليوم إذا عزلنا عنه فكرة الإيمان بالله,

١ - محمد باقر الصدر، فلسفتنا، ص١١.

تعالى, والرسـل الّذين بعثهم إلى البشريّة على امتداد التاريخ، لا شـكّ في أنّ مـا يتغنّى به هؤلاء من التقدّم والتطوّر والحضارة لم يكن له وجود لولا الإيمـان بالله تعالى ومسـيرة الأنبياء، لأنّ شـكل البشريّـة اليوم هو مدين -شاء من شاء وأبى من أبى- إلى الدّين، وإلّا كان صورة البشريّة هي صورة التوحّش والبربريّة وسلوك سكان الكهوف والأدغال... الغارقة في مستنقع الماديّة المحضة والمتعة الحسيّة، إنّ تطور العقل البشريّ، وحاكمية القيم على الحياة الإنسـانيَّة مدين للإيمان بالله, تعالى, والدّين، إذ إنّ الملحدين أنفسهم، يعترفون بأنّه لولا الإيمان بالله, تعالى, لسقطت كلّ القيم ولكانت البشريّة منغمسـة في التوحّش، فإن كان ثمة بعض بقايا الأخلاق والتمدّن في هـذا العالم فهي بسـبب مـا ورثته من الأخـلاق الدينيّـة عامّة، وخير دليل على ذلك أنّ إنكار الصانع لهذا العالم يُحرِّر الإنسـان من أي سـلطة أخلاقيّـة، إذ لا يكون ثمة مكان للخير أو الشر أو الحسـن أو القبح، فهذا الفيلسـوف الوجودي الفرنسيّ الملحد جان بول سارتر، يقول: «لقد كتب دوستويفسـكي: «لـو لم يكن الله موجودًا، لكان كلُّ شيءٍ مسـموحًا به». هذه هي نقطة البداية للوجوديّة. في الواقع، كلُّ شيءٍ مباح إذا لم يكن اللهُ موجودًا»[1].

وكذلك عالم الأحياء التطوّريّة الملحد ريتشـارد دوكنز، يقول: «في هذا

١ - سارتر، الوجودية مذهب إنسانيّ، ص ٢٤-٣٥.

العالم لا يوجد شرٌّ ولا يوجد خيرٌ، لا يوجد سوى لامبالاة عمياء وعديمة الرّحمة»[١].

لولا الإيمان بالله, تعالى, والأخلاق الدينيّة، سنرى في مجتمعاتنا مشروعية الزواج بين الإنسان والحيوان، فهذا الملحد الأسترالي «بيتر سنجر» يقول لا خطأ في ممارسة الجنس بين البشر والحيوانات طالما أنّه يؤدّي إلى استمتاع الطرفين[٢]. وهذا الفيزيائيّ المُلحد «لورنس كراوس»، لا يعدُّ أنّ العلاقة الجنسيّة بين المحارم كالأبن وأمّه أو ابنته، خطأ، ولا يوجد في ذلك أيَّ إدانة طالما أنّه بالتراضي والحبّ[٣].

نعم، لولا الإيمان بالله, تعالى, والأخلاق الدينيّة، لكانت صورة البشريّة صورة حيوانية، وحضارة بهائميّة، لأنّه لن يكون هناك صوت للعقل، بل الحاكم هو نداء الشهوة الحيوانيّة واللذة الحسيّة والمتعة الماديّة.

عن أمير المؤمنين, عليه السلام: «إنّ الله عزَّ وجلَّ ركَّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركَّب في البهائم شهوةً بلا عقل، وركَّب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقلُه شهوتَه فهو خيرٌ من الملائكة، ومن غلبت شهوتُه عقلَه فهو شرٌّ من البهائم»[٤].

---

1 - Scheff Liam (2007), The Dawkins Delusion, p.94

2 - https://www.aljazeera.net/midan/intellect/philosophy/201719/9/

٣ - زنا المحارم ليس خطأ واضحًا، على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=M69XV35sCdk

٤ - الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص٤-٥، ح١.

● **رابعًا: الإلحاد وضغط الإنسان في القالب الماديّ:**

لا يمكن نفي أثر العلم في تقدّم حياة الإنسان وتسهيلها، وحلّ العديد من المشكلات التي يواجهها، إلا أنّ هذا لا يستدعي أنْ يكون العلم الأطروحة الفاضلة لقيادة المجتمع البشريّ نحو كماله الطبيعي. هذه رؤيّة تختزل أبعاد هويّة الإنسان، وتضغطه ككيان بيولوجي في قالب مادي نفعي محض، وتعزله عن كلّ علاقة خارج حدود المادة والطبيعة، أطروحة تمارس تغريب الإنسان بإقصائه عن الإيمان بالله، بدل أن توفّر له سعادته الواقعيّة بتحقيق الهدف الوجوديِّ الذي صمّم تكوينه لأجله. وإذا استطاعت البشريّة أن تقضي على هذه الفكرة فإنّها تكون قد وضعت حدّاً فاصلاً للمؤامرة على الإنسان وحركته نحو سعادته وكماله. لأنّ النّظام الأصلح لقيادة حياة الإنسان، هو - النظام التوحيديّ الدينيّ[1]- ذلك أنّه يعبّد له الطريق في كدحه نحو هدفه، ويكافح كلّ المثل المصطنعة والمنخفضة والتكراريَّة، التي تريد أن تُحوِّل مسيرة البشريّة من أعلى إلى أسفل، بقطع صلة الإنسان بأشواقه العليا، وتحويل مساره إلى كومة مادية نفعيّة، محدودة الأشواق والطموحات.

إذًا تورَّطَ أصحابُ هذه الأطروحة في مشكلة معرفيّة كبرى يمكن أن

---

١ - طالع: محمد باقر الصدر، السنن القرآنية للمجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م. واليزدي، النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ترجمة عبد المنعم الخاقاني، دار الروضة، بيروت، ط١، ١٤١٦ه-١٩٩٦م. ومطهري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت، ١٤١٣ه-١٩٩٣م.

نصطلح عليها «اختزال الإنسان وضغطه في قالب مادي محض»، في حين أنّ الإنسان كائن ثنائيُّ الأبعاد: المادة، والروح، ويحتاج إلى إشباع البعد المادي من وجوده، ويشترك في ذلك مع باقي أنواع الحيوانات، وهذا يمثِّل المستوى المنخفض من الحياة الإنسانيَّة، ومركز التمايز الإنساني هو في إشباع حاجاته الرّوحيّة كالشّعور الدِّينيّ بالارتباط بخالق الكون والخضوع أمام عظمته والإحساس بالطمأنينة بين يديه تعالى، وإعطاء الحياة معنى بالإيمان بالقضايا الدينيّة كعالم ما بعد الموت وخلود الرّوح... إذ تفقد الحياة الإنسانيَّة قيمتها من دون الاعتقاد بالمبدأ والخالق وخلود الحياة، لأنّه لا معنى للحياة المختومة بالعدم واللاشيئية. فقد يكون مجتمع ما متقدّمًا في البعد المادي وعالم الأشياء والآلات والتكنولوجيا والعمران...، ولكنّه متخلّف في الحياة الرّوحيّة والمعنويّة والارتباط بالله,تعالى، وإذا اتّصف مجتمعٌ ما بالتخلُّف الرّوحيّ والمعنوي، فلا يمكن الحكم عليه بالتسامي والرّقيّ، لغفلته عن البعد الأعلائي في وجود الإنسان والانغماس في المستوى المنخفض منه.

● **خامسًا: فقدان الإيمان بالله تعالى يسبّب الضياع والشعور بالعدميّة:**

ومن البديهيّ أنّ الإنسان يحتاج إلى إشباع حاجات البعد المادي من وجوده، كالغذاء والتنفّس والنّوم... ويشترك في ذلك مع باقي أنواع الحيوانات من حيث وحدة الحاجات الماديّة، وهذا يمثِّل المستوى المنخفض من الحياة الإنسانيَّة، فلا يكون محور تغاير الإنسان عن غيره،

بل مركز التمايز الإنسانيّ هو في إشباع حاجاته الرّوحيّة كالشّعور الدِّينيّ بالارتباط بخالق الكون والخضوع أمام عظمته والإحساس بالطمأنينة بين يديه تعالى، وإعطاء الحياة معنى بالإيمان بعالم ما بعد الموت وخلود الرّوح... إذ تفقد الحياة الإنسانيَّة قيمتها من دون الاعتقاد بالمبدأ والخالق وخلود الحياة، لأنّه لا معنى للحياة الممزوجة بالتعاسة والهمّ والحزن والخوف والقلق والكآبة... فإنسانيّة الإنسان بروحه لا ببدنه، ولا قيمة للإنسان من دون إشباع الحاجات الرّوحيّة التي تُشكِّل المستوى الأعلى والأسمى من وجوده، وإلّا ستكون منزلته الوجوديّة في أفق الحيوانيّة.

وهذا ما أشار إليه الإمام زين العابدين عليه السّلام في الصّحيفة السّجاديّة: « وَالحَمدُ للّه الَّذي لَو حَبَسَ عَن عِباده مَعرِفَةَ حَمده عَلى ما أبلاهُم من مِنَنه المُتَتابعَة، وأسبَغَ عَليهم من نعَمه المُتَظاهرَة ؛ لَتَصَرَّفوا في مِنَنه فَلَم يَحمَدوهُ، وتَوَسَّعوا في رِزقه فَلَم يَشكُروهُ، ولَو كَانوا كَذلكَ لَخَرَجوا من حُدود الإنسانيَّة إلى حَدِّ البَهيميَّة، فكانوا كَما وَصَفَ في مُحكَم كِتابه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا﴾[الفرقان:٤٤][1].

● **سادسًا: المنفعة المادية والمتعة الحسيّة ليست معيارًا للتقدّم والتطوّر:**

يتبيّن ممّا تقدّم، أنّ النّظر إلى خصوص المنافع الماديّة كمعيار لقياس

١ - الصحيفة السّجادية، ص١٨.

قيمة الأشـياء والحكـم عليها، يلزم منه الاقتصار عـلى البعد الحيواني من حياة الإنسـان، في حين أنّ المطلوب -بالإضافة إلى امتلاك معيار نقيس به المنافع الماديّة- هو أن نمتلك معيارًا نتمكّن بواسطته من الحكم على قيمة حياة الإنسـان في بعدها الرّوحي بتلبية المنافع المعنويّة، وأهمّها الوصول إلى الهـدف الوجودي الـذي خُلِق الإنسـان لأجله أيّ معرفـة اللّه تعالى وعبادته، ولن يعثر الإنسان على عقيدة كهذه إلاّ في الدِّين الحقّ الذي أنزله اللّه تعالى بوسـاطة الأنبياء. فليس بالمنفعة الماديّة يكون الإنسـان إنسانًا، والحضارة حضارة، وليس بالمتعة الحسيّة يكون التطور والتقدّم، بل بإشباع الحاجـات المعنويّة والرّوحيّة التي تعلو أهمّيّتها على حاجة الإنسـان إلى الأطعمة الشّهيّة والثّياب الفاخرة والأبنية الشّاهقة ووسائل النقل المُرفّهة...

بنـاءً عليه، يظهر أنّ التقدُّم والتخلّف أمران نسـبيان، إذا تجاوزنا المعيار الماديّ فقط، فلو سـلّمنا أنّ المجتمعات الغربيّة متقدِّمة في البعد الماديّ لحياة الإنسـان، فأين المعيار الرّوحي الذي نقيس به مدى تطوّر الإنسـان في الحياة المعنويّة؟!! قد يكون مجتمع ما متقدّمًا في البعد المادي وعالم الأشـياء والآلات والتكنولوجيا والعمـران...، ولكنّـه متخلّف في الحياة الرّوحيّة والمعنويّة والارتباط بالله,تعالى، وإذا اتّصف مجتمعٌ ما بالتخلُّف الرّوحيّ والمعنوي، فلا يمكن بنظر العقل الحكم عليه بالتسـامي والرّقيّ، لغفلته عن البعد الأعلا في وجوده والانغماس في المسـتوى المنخفض منه.

● **سابعًا: الإيمان بالله والدّين الحقّ يحفِّز على التقدّم والتنمية:**

قد يتخلّف المنتسبون إلى دين ما في سلوكهم عن الالتزام بتعاليمه، فلا يُنسَب تخلّفهم عنه إلى الدِّين ذاته، فالشُّبهة المطروحة ناشئة من الخلط بين الدِّين الحقّ في ذاته بما يحتوي عليه من رؤية كونية وأخلاق وقيم وتشريعات... وبين الدِّين كممارسة إنسانيّة في الحياة الاجتماعيّة، والمعايير العلميّة والموضوعيّة تقتضي من الإنسان النّزيه والمُنصِف أن يحكم على الدِّين الحقّ في ذاته، لا في ضوء ممارسات المنتسبين إليه وفق سياقات تاريخيّة قد لا تمثّل جوهره كما هو.

فليس الدِّين في ذاته هو العامل لتكون المجتمعات الدِّينية أقلّ تقدّمًا مقارنة بالمجتمعات الغربيّة التي تسود فيها الحضارة الماديّة، بل العكس هو الصّحيح، لأنّ العامل الحقيقي في تراجع المجتمعات الدينيّة عن بناء الحضارة الماديّة هو في تخلّيها عن سنّة الاستخلاف والتسخير وعمارة الأرض... وفق الإرادة الإلهيَّة. فقد ربط القرآن الكريم بين إقامة الدِّين الحقّ وبين رفاهية الحياة الماديّة، يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾[المائدة:٦٦]، ﴿**وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا**﴾[الجن:١٦]، ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾[نوح:١٠-١٢].

والعامـل الآخـر، أنّ الدّول المسـتكبرة التي تمثّل المجتمعـات الغربيّة الملحدة سـيطرت على ثروات المسـلمين ونهبت خيراتهم، ومنعتهم من اسـتثمار مقدراتهم، فبنت حضارتها الماديّة عـلى سرقة ثروات مجتمعاتنا ونهـب خيراتها، وليس أمام المجتمعات الإيمانيّـة من أجل بناء الحضارة الإنسانيَّة الشّاملة في بعديها المادي والرّوحي إلا:

- **أولًا:** العودة إلى إقامة الدِّين الحقّ، وليس التخلّي عنه.
- **ثانيًا:** التحرّر من أيّ سلطة استكباريّة خارجيّة.
- **وثالثًـا:** اسـتثمار العلوم التجريبيَّة في اكتشـاف أسرار اللّه, تعالى, في الطّبيعة التي سـخّرها للإنسان، ليسـتثمر في منافعها إيجابًا من أجل إشباع حاجاته الماديّة بما يضمن تكامله الرّوحي والمعنويّ.

## المبحث الثالث:
## الإيمان بالله وليد «فتنة الخوف»

ثمة تفسـير آخر للملحدين لظاهرة الإيمان باللـه, تعالو الممتدّة عميقًا في التاريخ الإنسـاني، تُرجِع نشـوء الإيمان بالله, تعالى, إلى عامل نفسيّ آخر غير الجهل، اصطلح عليه اسم «فتنة الخوف»، أيّ خوف الإنسان من تلك الظّواهر الطبيعيَّة والشّعور بالعجز عن مواجهتها، فقام العقل البشريّ

باخـتراع فكرة الإله كقوة عظمى تتحكّم بالعالم، تمتلك من صفات القدرة والقوّة التي تجعلها مؤهّلة ليلجأ إليها الإنسان لتخلّصه من خوفه ومعاناته وتحميـه من المخاطـر والتهديدات فيرتفـع الخوف من داخله، ويشـعر بالأمان النّفسي والسّكينة.

يقـول برتراند رسـل: «يقوم الدِّين، برأيـي، بصورةٍ أساسـيّةٍ وأوليّةٍ على الخوف، إنّـه جزئيًا الخوف من المجهول... إنّ الخوف هو أسـاس الأمر كلِّـه - الخوف من كلّ ما هو غامض، الخـوف من الهزيمة، والخوف من الموت، إنّ الخوف هو أبو القسـوة وأمها، لذا، لا عجب إذا ما كان الدِّين والقسـوة يسـيران يدًا بيَد»[١]. ويقول: «في عقيـدتي أنّ الإقبال على الدين والتدين في تاريخ الإنسان ينشأ عن الخوف، فإنّ الإنسان يرى نفسه ضعيفاً إلى حد ما في هذه الحياة، وعوامل الخوف في حياة الإنسان ثلاثة:

فهو يخاف أولاً من الطبيعة التي قد تحرقه بصاعقة من السـماء، ويبتلعه زلزال الأرض تحت قدميه، ويخاف ثانياً من الإنسـان الذي قد يسـبب له الدمـار والخراب والهلاك مما يثيره من حروب، ويخاف ثالثاً من شـهواته التـي قد ينحرف معها وتتحكم في سـلوكه وتفوت عليـه ما يندم عليه في سـاعات اسـتقراره وهدوئـه، ويكون الدين سـبباً في تعديل هـذا الرعب والتخفيف منه»[٢].

---

١ - رسل، لماذا لست مسيحيًّا؟ ص٢٦.

٢ - نقلاً عن: الآصفي، دور الدين في حياة الإنسان، ص٧٤.

وتقدّم أنّ عقل الإنسان قد تطوّر واكتشف بوساطة العلوم التجريبيَّة العلاقات القائمة بين الظّواهر الطبيعيَّة وأسباب حدوثها، فارتفع جهله بها، ولم يعد هناك داعٍ للخوف منها، فعلى الإنسان والحال هذه أن يتحرّر من العقائد الخرافيّة الموروثة التي تعارض العلم الحديث، ولا بدّ من ارتفاع الاعتقاد بالإله تبعًا لارتفاع الجهل والخوف وسيادة المنطق العلمي. فالحلّ يكمن في الإيمان بالعلم وقدرته على تغيير حياة الإنسان. لذا يتابع رسل قوله: «العلم يستطيع أن يساعدنا في تجاوز هذا الخوف الذي يصيبنا بالجبن والذي عانى منه الجنس البشريّ لأجيال عديدة»[1].

## ● ثانيًا: الإيمان باللّه تعالى سبب للشعور بالأمان النّفسيّ

لو كان ما تطرحه هاتان النظريتان -من أنّ الجهل بالأسباب الطبيعيَّة أو الخوف منها هما العلّة التامّة لنشوء الإيمان باللّه تعالى- صحيحًا، لاستلزم منطق قانون السّببيّة -القائم على أساس أنّه عندما يوجد السّبب يوجد المسبَّب، وعندما ينتفي السّبب ينتفي المسبَّب- أن يكون المجتمع الأكثر إيمانًا باللّه تعالى هو المجتمع الأكثر جهلاً وخوفًا، فأينما يوجد الخوف والجهل يوجد التديّن، وعندما ينتفي الخوف أو الجهل ينتفي التديّن وتكثر النّزعة الإلحاديّة. بينما المسألة على عكس ذلك تمامًا، حيث

١ - رسل، لماذا لست مسيحيًّا، ص٣٥.

نلاحظ أنّ الملحد يعيش القلق الوجودي والخوف من المستقبل، في حين أنّ المجتمع العلماني الدِّيني أكثر فهمًا للوجود، وأشــدّ شــعورًا بالطمأنينة والسّــكون نتيجة الارتبــاط بالله,تعالى، كما أنّ الاعتقــاد بوجود اللّه تعالى أكثر انتشارًا عند علماء الطّبيعة والفيزياء الحديثة والفلك و... في المجتمع العلمي المعاصر من الإلحاد وإنكار وجود اللّه تعالى بأضعاف كبيرة.

فالاعتقاد بالله, تعالى, والتديّن يعزّز الصِّحة النفسيّة للإنسان بما يمنحه من شــعور بالأمان والطمأنينة وســكون النفس، فيــزول عنه الاضطراب والقلق من المســتقبل، لأنّ الديــن الحقّ يعطي للحياة تفســيراً ذا هدف ومغزى ومعنى، فلا يؤدّي ذلك إلى تولّد النزعة العدميّة والشعور بالضياع.

فلولا الإيمان بالله,تعالى، ســينعدم الشعور بهدفيّة الكون عند الإنسان، وسيشــعر الإنســان أنّه يعيش الوحشــة في هذا العالَم الفسيح، وتزيد لديه نزعة التشاؤم والعدميّة، والأمراض النفسيّة، والجنون...

يُنقــل عن كارل يونج - مؤسّــس علــم النفس التحليليّ - أنّــه يقول: «إنّ انعدام الشعور الدينيّ يسبّب كثيراً من مشاعر القلق والخوف من المستقبل، والشــعور بعدم الأمان والنزوع نحــو النزعات المادّيــة البحتة، كما يؤدّي إلى فقدان الشــعور بمعنى هذه الحياة ومغزاها، ويؤدّي ذلك إلى الشــعور بالضياع»[1].

١ - انظر: العيسوي، دراسات في تفسير السلوك الإنسانيّ، ص١٩٣.

ولهذا نلاحظ أن أعلى نسبة انتحار هي بين الملحدين حسب الدراسة التي أجراها البروفيسر José Manoel Bertolote، وهو مسؤول في منظّمة الصّحة العالميّة، حيث كشفت أنّ نسبة الملحدون على رأس قائمة الّذين قتلوا أنفسهم ليتخلَّصوا من حياتهم وتعاستهم، بنسبة (٤٠ ٪)، وفي ذيل القائمة يأتي المسلمون (١ ٪)[١]. فأيّ صورة ستكون عليه البشريّة لو انتشر الإلحاد وارتفع الإيمان بالله,تعالى، إنّ الإيمان بالله تعالى هو ضمانة ما تشعر به الإنسانيَّة اليوم من بعض القيم والأخلاق رغم كلّ ما فيها من الفساد والشرّ والظلم و... كما أنّ التديّن هو الذي يُكسِب الإنسان القوّة في الحياة على مواجهة التحديات، ويمنحه الشجاعة والثقة بالنفس، نتيجة شعوره بالمعيّة الإلهيَّة، وهذا ما نلمسه في حياة الأنبياء عليهم السلام، فيوسف عليه السلام، ذلك الطِّفل الذي كان في التاسعة من عمره، حين ألقاه إخوته في غيابت الجُبّ، من المفترض أن يشعر بالخوف والاضطراب والقلق والكآبة والوحشة والغربة.... لكن، حين التقطه بعض السيّارة وأُخرج عليه السّلام من البئر، قال لهم قائل: استوصوا بهذا الغريب خيراً.

قال لهم يوسف: «من كان مع الله فليس عليه غربة[٢].

فالشعور بالمعيّة الإلهيَّة يُشعِر الإنسان بالطمأنينة وسكون النفس ويطرد عنه الخوف والحزن.

---

1 - Is religion protective against suicidal behaviour for LGBT individuals?

٢ - الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ج٣، ص٥.

وفي هذا السياق يقول الشهيد الصدر في نصّ مهم:»توصّل الإنسان إلى الإيمان بالله منذ أبعد الأزمان، وعبده وأخلص له، وأحسّ بارتباط عميق به قبل أن يصل إلى أيّ مرحلة من التجريد الفكري الفلسفيّ، أو الفهم المكتمل لأساليب الاستدلال (...) ولم يكن هذا الإيمان وليد مخاوف وشعور بالرعب تجاه كوارث الطبيعة وسلوكها المضادّ، ولو كان الدين وليد خوف وحصيلة رعب لكان أكثر الناس تديّناً على مرّ التاريخ هم أشدّهم خوفاً وأسرعهم هلعاً، مع أنّ الذين حملوا مشعل الدين على مرّ الزمن كانوا من أقوى الناس نفساً وأصلبهم عوداً. بل إنّ هذا الإيمان يعبّر عن نزعة أصيلة في الإنسان إلى التعلّق بخالقه، ووجدان راسخ يدرك بفطرته علاقة الإنسان بربّه وكونه (...) وحينما بدأت التجربة تبرز على صعيد البحث العلمي كأداة للمعرفة، وأدرك المفكّرون أنّ تلك المفاهيم العامّة لا تكفي بمفردها في مجال الطبيعة لاكتشاف قوانينها والتعرّف على أسرار الكون، آمنوا بأنّ الحسّ والملاحظة العلميّين هما المنطلق الأساس للبحث عن تلك الأسرار والقوانين.

(...) وكان بالإمكان لهذا الاتّجاه الحسّي والتجريبي في البحث عن نظام الكون أن يقدّم دعماً جديداً وباهراً للإيمان بالله سبحانه وتعالى؛ بسبب ما يكشفه من ألوان الاتّساق ودلائل الحكمة التي تشير إلى الصانع الحكيم»[1].

١ - محمد باقر الصدر، المرسل الرسول الرسالة، ص١٣-١٤.

● **ثالثًا: تحويل الخوف من تهديد إلى فرصة للإيمان بالله, تعالى:**

لا يمكن تصنيف الخوف بحدِّ ذاته على أنّهحالةٌ مَرَضيّة، لأنّ الخوف حالةٌ نفسيةٌ يعيشها كلّ إنسان سويٍ على نحوٍ طبيعي. نعم، قد يتحوّل الخوف إلى حالةٍ مرضيّةٍ فيماً لو تجاوز حدّه الطّبيعي، كما هو شأن كلّ صفة إنسانية، ومؤشّر معرفة ذلك بأن يفقد الإنسان بسبب الخوف توازنه الطّبيعي في التعامل مع الأشياء. فلنسلِّم أنّ دافع حاجة الإنسان إلى الدِّين هو الخوف، ولكنّه لا يصلح أن يكون ذريعةً بيدهم، بل على العكس من ذلك هو حجةٌ قويةٌ بيد المتديّن، فإذا كان الإنسان يجد في اللّه سبحانه وتعالى أمانه وطمأنينته ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ سورة الرّعد، الآية:٢٨، فما المشكلة في أن يكون الدّافع الذي يحرّك الإنسان نحو الإيمان باللّه تعالى هو الخوف الطّبيعي الذي يعيشه كلّ إنسان سويّ ليشعر بالأمان الدّنيوي، ويدفع عن نفسه الضّرر الأخروي.

هذا فضلاً عن أنّ هذا الشّعور بالخوف هو أحد الدّوافع التي تحرّك المُلحد نحو الله,تعالى، عندما تتقطّع به الأسباب الماديّة التي كان يتوسّل بها ليشعر بالأمان، يقول تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ**﴾ سورة يونس، الآية:١٢، ﴿**فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ**﴾ [العنكبوت:٦٥].

عن الإمام الحسن العسكريّ, عليه السّلام: «اللّه هو الذي يَتألَّه إليه عند الحوائج والشّدائد كلّ مخلوق عند انقطاع الرّجاء من كلّ مَنْ دونه وتَقطُّعِ الأسباب من جميع من سواه» [١].

## المبحث الرابع:
## الإيمان بالله وليد الصراع بين الطبقات الاجتماعيّة

### ● أوّلًا: الإيمان بالله ناشئ عن الصراع الاقتصاديّ والتناقض الطبقيّ في المجتمع

يتبنى كارل ماركس أنّ التناقض الطبقي هو الذي يلعب الدور الأبرز في نشوء الإيمان بالله، إلّا أنّنا ننقل نص ماركس لأهميته في بيان فكرته، إذ قال: «إنّ الإنسان يصنع الدِّين، وليس الدين هو الذي يصنع الإنسان. يقينًا أنّ الدين هو وعي الذات والشعور بالذات لدى الإنسان الذي لم يجد بعد ذاته، أو الذي فقدها. لكن الإنسان ليس كائنًا مجرّدًا جاثمًا في مكان ما خارج العالم. الإنسان هو عالم الإنسان، الدولة، المجتمع. وهذه الدولة وهذا المجتمع ينتجان الدين، الوعي المقلوب للعالم، لأنّهما بالذات عالم مقلوب. الدين هو النظرية العامة لهذا العالم، خلاصته الموسوعية، منطقه

١ - الصّدوق، التوحيد، ص٢٣١.

في صيغته الشـعبية، موضع اعتزازه الروحي، حماسته، تكريسه الأخلاقي، تكملتـه الاحتفالية، عزاؤه وتبريره الشـاملان. أنّه التحقيق الوهمي للكائن الإنسـاني، لأنّ الكائن الإنسـاني لا يملك واقعًا حقيقيًّا. إذن فالصراع ضدّ الدين هو بصـورة غير مباشرة صراع ضد العالم الـذي يؤلّف الدين نكهته الروحية. إنّ التعاسـة الدينية هي في شطر منها تعبير عن التعاسة الواقعية، وهي من جهة أخرى احتجاج على التعاسة الواقعية.

الديـن زفرة الإنسـان المسـحوق، روح عـالم لا قلب له، كـما أنّه روح الظـروف الاجتماعيّـة التي طرد منها الـروح. أنّه أفيون الشـعب، إنّ إلغاء الدين، من حيث هو سـعادة وهمية للشـعب، هو ما يتطلبه صنع سـعادته الفعلية. إن تطلب تخلي الشعب عن الوهم حول وضعه هو تطلب التخلي عـن وضع بحاجة إلى وهم. فنقد الدين هـو بداية نقد وادي الدموع الذي يؤلف الدين هالته العليا»[1].

فالماركسـيَّة لم ترض تفسـير الدّين بأنّه «نشـأ نتيجة لعجز الإنسـان القديم وإحساسـه بالضعـف، بـين يدي الطبيعـة وقواهـا المرعبة، وجهلـه بأسرارها وقوانينهـا...، لأنـه يشـذ عـن قاعدتهـا المركزية، فـلا يربط الديـن بالوضع الاقتصاديّ، القائم على أساس الإنتاج الذي يجب أن يكون هو المفسر والسبب

١ - ماركس، نقد فلسفة الحق عند هيجل، نقلاً عن: الحوار المتمدن، العدد: ٣٣٦٢-٢٠١١/٥/١١م.

الوحيد»[1]، ومن هنا انطلقت الماركسيَّة في البحث عن سبب نشوء الدين من فهم طبيعة العلاقات الاقتصاديّة في المجتمع خصوصًا في التناقض الطبقي.

## ● ثانيًا: نقص التصوّران المعقولات لتفسير نظرية الماركسيَّة في الإيمان بالله

وثمة تصوّران تقدّمهما الماركسيَّة في كيفية نشوء الدّين عن التناقض الطبقي في المجتمع، أوضحهما جورج بولتزير- في تتمة نصّه الذي تقدّم في بداية البحث- حيث يقول: «تستخدم الطبقات المُستغِلة هذه الخاصية لاهتمامها بإخفاء استغلالها عن أعين الطبقات الكادحة، فهي بحاجة إلى سلبية هذه الطبقات وجمودها، كي يستمر اضطهادها، كما أنّها بحاجة لخضوعها وإيمانها بالقضاء المحتوم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يجب توجيه أمل الجماهير بالسعادة نحو العالم الآخر، وهكذا يعوّض الأمل والعزاء بدخول الجنة على أنّهما تعويض عمّا بذلته الطبقات الشعبية من تضحية على الأرض فيتحول الاعتقاد بخلود النفس الذي كان ينظر إليه في القدم على أنّه مصيبة مرهقة إلى أمل بالخلاص في الآخرة فاستخدمت الديانة منذ أقدم العصور كقوة فكرية للمحافظة على النظام وكأفيون للشعوب حسب ما يقول ماركس»[2].

---

١ - محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ص١٠٧-١٠٨.
٢ - بولتزر، أصول الفلسفة الماركسية، ج١، ص٢٠٨.

فالتصورّ الأول: أنّ الدّين مُخدِّر أفيوني تعطيه الطبقة المُستغِلة للفئات المُضطهَدة، لتخدّرها فتستلسم لواقع البؤس، وتعتكف عن المطالبة بحقوقها من الطبقة الحاكمة.

وهي بهذا تغض النظر عن الحراك النبوي الممتد في التاريخ، والذي يدلل على أنّ الدين كان ينشأ دائمًا في أحضان الفقراء والبائسين، قبل أن يغمر بنوره المجتمع كله. فكيف يمكن أن يُفسَّر الدين على أنّه نتاج للطبقة الحاكمة المالكة المسيطرة، خلقته لتخدير المضطهدين وحماية مصالحها؟!!

فهل كان -مثلاً- من مصلحة طبقة أغنياء مكة المكرّمة في عهد الدعوة المحمديّة، أن تجعل الدين الإسلاميّ أداة فعالة في القضاء على الاقتصاد الرأسماليّ الربوي الذي كان يعود على أغنياء مكة بثروات هائلة وأرباح طائلة قبل أن يتشدّد القرآن في تحريمه كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة:275].

هل كان من مصلحة أغنياء مكة التنازل عن أرستقراطيّتهم وتسخّر الدين للدعوة إلى أنّه لا فضل لغني على فقير, ولا عربي على أعجمي, ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى، وفرض الضرائب المالية من الزكاة والخمس

وغيرها على الأغنياء، فتصنع دينًا يؤدي وجوده إلى عدمها؟!!

أمّـا التصوّر الثاني: أنّ الطبقة المُسـتغَلة الفقيرة البائسـة هي التي تصنع الدّين لنفسـها لتجد فيها عزاء لها فتمتلأ نفـوس الفقراء بالأمل بالتعويض عن بؤسهم بدخول الجنة بسبب التضحية والفقر.

ولكن دراسة تاريخ المجتمعات البدائيّة، التي تحسبها الماركسيَّة، تعيش في حالة شـيوعيّة لا طبقيّة، يعطينا انطباعاً أنّها قد «مارست هذا اللون من التفكـير، وظهرت فيها العقيدة الدينية بأشـكال شـتى. فلا يمكن أن يفسر الدين تفسيراً طبقيًّا، أو أن يعدَّ انعكاسًا عقليًّا لظروف الاضطهاد التي تحيط بالطبقة المُسـتغلَة، ما دام قد وجد في حياة الإنسان العقلية، قبل أن يوجد التركيـب الطبقـي، وقبل أن يغرق الوادي بدموع البائسـين والمسـتغلين. فكيف تستطيع الماركسيَّة بعد هذا أن تجعل من الوضع الاقتصاديّ أساسا لتفسير الدين؟! (...)

وكيف يمكن أن نفسر وجود العقيدة الدينية، منفصلة عن الواقع السيء، وظروف الاضطهاد الاقتصاديّ؟!...

إن الماركسـيَّة لا يمكنها أن تنكر وجود العقيدة الدينية، عند أشخاص لا يمتُّون إلى ظروف الاضطهاد الاقتصاديّ بصلة، وصلابة العقيدة في نفوس بعضهم، إلى درجة تدفعهم إلى التضحية بنفوسهم في سبيلها. وهذا يبرهن -بوضوح- على أنّ المُفكِّر لا يسـتوحي فكرة إيديولوجية -دائمًا- من واقعه الاقتصـاديّ، لأن الفكـرة الدينية عنـد أولئك الأشـخاص، لم تكن تعبيراً

عن بؤسهم، وتنفيسًا عن شقائهم، وبالتالي لم تكن انعكاسًا لظروفهم الاقتصاديّة، وإنما كانت عقيدة تجاوبت مع شروطهم النفسيّة والعقليّة، فآمنوا بها على أساس فكريٍّ»[1].

فتفسير الماركسيَّة لنشوء الدّين من السخافة بمكان واضح لأنّ الإيمان بالله تعالى سبق في تاريخ البشريّة أي تناقضات وصراعات من هذا القبيل الذي تصوّره الماركسيَّة.

وعلى كلّ حال، لا شكّ في وجود طبقتين اجتماعيتين في تاريخ الإنسان، والقرآن الكريم يحدّثنا عن وجود المُستغِلّين والمستكبرين والمضطَّهِدين من جهة، ووجود المُستغَلّين والمستضعفين والمضطهَدين من جهة ثانية، ولكن التديّن والإلحاد يجتمعان مع كلا الطبقتين، ففي الطبقة الأولى ثمة متديّنين وملحدين وكذلك الأمر في الطبقة الثانية، وهذا مؤشّر إلى أنّ نشوء التديّن لا علاقة له بالتناقض الطبقي بين الفئتين.

وثالثًا أنّ المنطق الإسلاميّ في النظر إلى الاستكبار والاستضعاف يقوم على منظور آخر غير المنظور الماركسي، فليس دائمًا الاستكبار والاستضعاف منشؤه العامل الاقتصاديّ والاجتماعيّ، بل ثمة استكبار واستضعاف له منشأ آخر أهم يشكّل محورهما وهو في المنطق القرآني الاستكبار القائم على أساس الكفر والشرك والنفاق والترف ...

---

١ - انظر: محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ص١١٨.

والاستضعاف القائم على أساس التوحيد والإيمان والتديّن، فهو اضطهاد قائم على أساس الاختلاف في العقيدة، وغالبًا بل دائمًا ما كانت حركة الصراع بين الأنبياء وأقوامهم من هذا النوع دون الصراع المتمحّض في البعدين الاقتصاديّ والاجتماعيّ، وإلّا فإنّ في المعسكر الأول طبقتين اجتماعيتين غنية وفقيره تقوم الأولى باستغلال الثانية دون أن يكون ذلك منشأً لاختلاف الدين بينهما، بل تقوم عقيدة الطبقتين على الوثنية والشرك مثلاً دون أن نلاحظ صراعاً وتناقضاً عميقاً بينهما.

# الفصل الرابع:

## نموذجان من الملحدين المعاصرين
## (ريتشارد دوكنز، وستيفن هوكنغ)

## المبحث الأوّل:
## عالم الأحياء التطوّريّة ريتشارد دوكنز

### ● أوّلًا: إلحاد ريتشارد دوكنز «وَهَم الإله»

عـام ١٩٧٦م نشر ريتشـارد دوكنز كتابـه «الجين الأنـانيّ»، ومنذ ذلك الوقت بدأت شـهرته في حقل البيولوجيا التطوّريّة، وقد عُرِف عنه اتجاهه الإلحـادي ونزعته التي تنكر وجود المصمّـم الذكيّ والصانع لهذا العالَم، وقد تبلور ذلك بوضوح في كتابه «وهم الإله» الذي قارب ال٤٠٠ صفحة، والـذي قصد به إثبات أنَّ الله مجرّد وهَـم، اخترعه أناس مجانين، وهدف من ورائه حسـبما صرّح في الكتـاب أن يصبح القارئ المتديّن ملحدًا بعد الانتهاء من قراءة الكتاب، لأنّه سيتكشـف أنّـه لا يوجد أدلة على الإيمان بالله,تعـالى، وأنّ إيمانه مجرّد ثقة عمياء بأولئـك المجانين الّذين أوهموا المؤمن بأنّه يوجد حجّة على إيمانه، في حين أنّ عليه أن لا يبني إيمانه على الأوهام، بـل عليه فحص معتقداته، ليخرج من حالـة الطفولة في التفكير التـي طابعها الإيمان بالله إلى النضج الفكريّ المعتمد على البراهين التي تنفـي هذا الاعتقاد الذي يعود إلى مرحلة من تاريخ الإنسـان كانت تعتقد بالأوهام والأساطير والخرافات، التي ينبغي تجاوزها اليوم في عصر العلم.

● **ثانيًا: نقض كون الإيمان بالله مرحلة طفولة من التفكير البشريّ:**

وقـد غفل دوكنز عـن أنّه ثمة الكثير من الأشـخاص إنمّـا يؤمنون بالله تعـالى بعد أن يتجاوزوا مرحلة الطفولة في التفكير ويبلغوا مرحلة النضج، فيراجعوا ذواتهم، فيكتشفوا الله, تعالى في حياتهم،

فهذا چون فندلي، في سنة ١٩٥٥ دحض وجود الله، لكنه في كتابه: الصعود إلى المطلـق Ascent to the Absolute"، الذي نشره عام ١٩٧٠م، رجع عن فكرته وأثبت أن العقل والبصيرة والمشيئة مجتمعة في الإله القائم بذاته...

وهـذا ما نلاحظه عند أنطوني فلو الفيلسـوف البريطـانيّ الملحد الذي آمن بالله تعالى في سـنّ الثمانين، وصاحب كتاب: THERE IS A GOD «هناك إله»[1]، وكذلك عند ليسـتر إدغار ماكغراث عـالم الفيزياء الملحد الذي أصبح مؤمنًا بل عالم لاهوت والذي ألّف كتاب «إله دوكنز»، وكتاب «وهم دوكنز»، وكذلك بول فيتز الذّي سـار في طريق الإلحاد والشـكوكيّة ما يقارب الـ٢٠ عامًا، منذ أن كان عمره ١٨ سـنة إلى سن ٣٨، حيث يذكر في كتابه «سيكولوجية الإلحاد» أو نفسيّة الإلحاد، أنّ نتيجة خبرته الخاصّة هي أنّ الأسباب التي جعلته ملحدًا ومتشكّكًا كانت سطحيّة، وغير منطقيّة، وبلا نزاهة فكريّة أو أخلاقيّة، وأنه مقتنع أنّ الأسـباب نفسـها هي الشـائعة الآن بين الملحدين.

---

١ - فلو أنتوني، مع روي إبراهام فارجيس، هناك إله- كيف غيّر أشرس ملاحدة العالم أفكاره؟!، ط١، ٢٠١٧م.

وكذلـك فرانسـيز كولينز الذي كان ملحـدًا وترك الإلحـاد إلى الإيمان بوجـود الله,تعالى، نشر كتاب «لغة الله»، الذي يثبـت فيه أنّ هذا التنظيم العجيب في الطبيعة يشير إلى وجود إله خالق.

● **ثالثًا: نقض إصرار دوكنز على أن العالِم الحقيقيّ لا يكون إلّا ملحدًا:**

ومـع ذلك لا نفهم لماذا يصرّ دوكنز على أنّ العلماء الحقيقيّين لا يمكن أن يكونوا إلّا ملحدين؟!!

أليـس أُوِن غينغريتـش Owen Gingerich، عـالم فلك بـارز من جامعة هارفـرد، وقد نشر كتـاب «كون اللـه» God's Universe ، حيث أعلن فيه أنّ «الكون خُلق لغاية وهدف، وأنَّ هذا الاعتقاد لا يتناقض مع المسعى العلميّ».

ألم ينـشر عالم الكونيّات بول دافيس كتابه «لغز كولديلوكس»، مسـلّطًا الضوء على وجود قانون شـامل يقوم على أسـاس التوافق الحيويّ الدقيق في الكون الّذي يُحرّكه باتجاه تطور الحياة والعقل؟!!

بـل نلاحظ دوكنز يتّهـم كلّ عالم رياديّ يعتقد باللـه, تعالى, بأنّه خائن، فمثلاً يعدُّ دوكنز تصريح فريمان دايسـون -وهو عالم فيزياء رُشّـح لجائزة نوبل على عمله في الديناميكيا الكهربائيّة الكميّة، وحاز جائزة تمبلتون في الدّين عام ٢٠٠٠م- عن إنجازات الدّين، بأنّه عملٌ جبانٌ وخيانة[1].

1 - Dawkins, The God Delusion, p. 152.

فالحقيقة أنّه قد صدق روي أبراهام فارجيس في وصفه لدوكنز وغيره من الملاحدة عندما شـنّوا حملوا عنيفة على تحوّل أنتوني فلو من الإلحاد إلى الإيمان بالله,تعالى، حيث يقول بحقّهم: إنّ الأشـخاص أنفسـهم «الذين ندّدوا بمحاكم التفتيش وبحرق السـاحرات على الأوتاد، يسـتمتعون الآن بقليـل من مطـاردة الخارجـين عن منهجهم. دعـاة التسـامح، لم يكونوا متسامحين على الإطلاق. أصبح من الواضح، أن المتديِّنين المتعصِّبين لا يحتكرون وحدهم الدوجمائية والفظاظة والرجعيّة والبارانويا»[1].

## ● رابعًـا: ريتشـارد دوكنز: البيولوجيـا التطوّريّة قضت على فكرة الإيمان بالله:

يعتقد دوكنز -محقًّا- أنّ الإيمان ليس مجرّد حالة فكريّة، بل يمثّل المعتقد كلّ شيء في حياة الإنسـان، فحياة الإنسـان هي وليد معتقداته[2]. فدوكنز داعية ملحد ولا دينيّ، فالدعاة لا يختصّون بالحالة الإسلاميّة، والمبشّرون لا يختصّون بالحالة المسيحيّة، بل هناك دعاة ومبشِّرون ملحدون، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.

هذه الثقة عند دوكنز تعتمد على إيمانه بأنّ البيولوجيا التطوّرية هي الأداة التي ستقضي على الإيمان بالله,تعالى، لأنّه من وجهة نظر دوكنز لا ينهض

١ - فلو أنتوني، هناك إله، ص١٥.

2 - Dawkins, The God Delusion. P.38.

المنهج العلمي المستخدم في العلوم الطبيعيَّة لإثبات وجود الله، وبالتالي فإنّ البيولوجيا ستوجه الضرب القاضية إلى هذا الفيروس المعدي الّذي هو الإيمان بالله وتمهِّد السبيل أمام الإلحاد ليحلّ محلّ الاعتقاد بالله ويعالج مرض البشريّة من وهمها.

ولذا يقول دوكنز في هذا المجال: «لقد طرد دارون الإله من البيولوجيا، ولكنّ الوضع في الفيزياء بقي أقل وضوحاً، ويُسدّد هوكينج الضربة القاضية الآن».

فدوكنز كحال كثير من الملحدين يروّجون أنّ الإلحاد هو قرار علميّ، بمعنى أنّه مستند إلى العلوم التجريبيَّة، أمّا الاعتقاد بالله, تعالى, فهو خيار لا عقلانيّ يستند إلى مسوِّغات نفسيّة واجتماعيّة وسياسيّة...

● **خامسًا: علم الأحياء بين الحياد وإثبات وجود الله، تعالى:**

لقد أثبتنا فيما سبق أنّ المنهج العلمي يُثبت وجود الله,تعالى، وسنعرض الدليل العلميّ في آخر هذا الفصل على ذلك، ولكن إذا تجاوزنا اعتقادنا بأنّ العلوم الطبيعيَّة قادرة على إثبات أنّ المصمّم الذكي والصانع العالِم القادر موجود، كما ذكرنا في دليل الشهيد السيد محمد باقر الصدر، فإنّ البيولوجيّا أو العلوم الطبيعيَّة ككل في الحدّ الأدنى لا تُثبت عدم وجود الإله، وإنّما هي محايدة، وقد صرّح بذلك أحد أبرز أساتذة جامعة هارفرد جاي غولد، فمع أنّه مُلحد إلّا أنّه قال: إنّ العلوم الطبيعيَّة تتناغم مع الإلحاد

ومـع الإيمان بالله على نحو متكافـئ[١]. وفي كتاب[٢] "Rocks of Ages" وبالنظر إلى أنّ بعض علماء علم الأحياء التطوريّ هم من المعتقدين بفكرة وجود إله خالق للحياة، يقول إمّا أن يصنِّف زملاءه من الأسـاتذة والعلماء الّذين لهم وجهة النظر هذه بأنّهم أغبياء، وإمّا أن علم الدارونيّة ينسجم مع الاعتقاد بوجـود إله، كما أنّه يتوافق مع الفكـر الإلحاديّ، وبالتالي يمكن تفسـير الظواهر الطبيعيَّـة برؤية توحيديّة، وكذلك برؤيـة إلحاديّة، دون أن تكون النتيجة حاسمة لأحد الطرفين.

كما يقول ليسـتر ماكغراث : «من المعـروف أنّ العالَم الطبيعيّ طيِّعٌ من الناحيـة النظريّة. ويمكن تفسـيره في عدد من الطرائـق المختلفة دون أيّ خسـارة للنزاهة الفكريّة. يقرأ بعضهم الطبيعـة أو يفسّرها بطريقة مُلحدة. وآخـرون يقرؤونها بطريقة توحيديّة، فيرَون أنّها تشـير إلى أُلوهيّة الخالق، الذي لم يعد مشـغولاً في شـؤونها. فالله يعبّئ السـاعة ثـمّ يتركها تعمل وحدها. ويأخذ آخرون وجهة نظر مسيحيّة، مؤمنين بإله يخلق ويديم على حدّ سـواء. وآخرون لديهـم وجهة نظر أكثر روحانيـة، متحدّثين بغموض أكثر عن نوع من «قوة الحياة».

1 - Stephen Jay Gould, Impeaching a Self-Appointed Judge, Scientific American, (1992), pp.21118-.

2 - Stephen Jay Gould, Rocks of Ages: Science and Religion in the Fullness of Life, 2002.

**الأمر بسيط:** الطبيعة مفتوحة على مروحة من التفسيرات الشرعيّة. فيمكن تفسيرها بطرائق إلحاديّة أو ربوبيّة أو إيمانيّة أو غيرها- لكنّها لا تتطلّب أن تُفسّر بأيٍّ من هذه. يمكن للمرء أنّ يكون عالِمًا حقيقيًّا دون أنّ يلتزم بأيّ نظرة للعالم سواء كانت دينيّة أو روحيّة أو معادية للدين»[١].

وجهة النظر هذه أثارت حنق دوكنز، لأنّها تنسف الأسس التي أقام عليه حججه الواهية[٢].

## ● سادسًا: الوعي والحياة والتعقيد في شريط الـ "DNA" سبب إيماني بالله، تعالى:

أنطوني فلو الذي تقدّمت الإشارة إليه صاحب كتاب: «هناك إله»، وقد ألّفه قبل ثلاثة سنوات من موته، وفلو هو من أشرس المنظّرين للفكر الإلحادي على مدى ٥٠ سنة، وله أكثر من ٣٠ كتابًا في هذا المجال، كرّس حياته لإثبات أنّه ليس هناك إله THERE IS NO GOD، ثم ختم حياته بأنّ هناك إله THERE IS A GOD ، مستشهدًا بقوانين الطبيعة نفسها على وجود الله,تعالى، وتحت تأثير الصدمة خرج بعض الملحدين لينفي أن يكون الكتاب من تأليف فلو لأنّه عجوز مريض، حتى خرج فلو

---

١ - ليستر إدغار ماكغراث، وجوانا كوليكات ماكغراث، وهم دوكينز- الأصوليّة الملحدة وإنكار الإله، ص٤٧.

2 - Dawkins, The God Delusion , p. 57.

بنفسه وأقرّ بمسؤوليّته عمّا ورد في الكتاب.

يقــول أنتــوني في كتابه: إنّ التعقيــد العالي والمثير للدهشــة في شريط الـــ "DNA" في الخليّــة الحيّة كان له الدور الأســاس في قناعته بأنّ هناك مصمّمًا ذكيًّا عظيمًا في هذا الكون.

إنّ أهــم ظاهرة كونيّة وطبيعيّة تشــكّل تحدِّيًا أمــام الملحدين، ويتهرّبون منها، والتي هي خير دليل على التصميم الذكيّ والصانع العالِم، هي وجود العقل والوعي والحياة في المادة، وهي مظاهر مثيرة للدهشة، حيث إنّهم إمّا يعترفون بالعجز أمام هذه الظواهر فيفشلون في تفسيرها، وإمّا يلجؤون إلى عامــل الحظّ المصادفةوالمصادفة كما فعل دوكنز عندما تكلّم على الوعي والعقــل والحياة,وأنَّها هي ظواهر انطلقت دفعــة واحدة لمرة واحدة نتيجة عامل ضربة الحظ، وبعضهم منهم يتجنّب النقاش حول المسألة كما كتب وولبــورت: «قمت عمدًا [!] بتجنّب أي نقاش عــن الوعي؛ الذي لم يفهم منه إلاّ القليــل إلى الآن»، وبعضهم أمثال دينيت وهو ملحد عنيد، يتحدث عن نشــأة الوعي بقوله: «ثم حدثت المعجزة»، أي هو أمر خارج التفســير. فليس هناك أي ملحد اســتطاع أن يُقدِّم أي رؤية منطقيّة عن الحياة والوعي في الكون ضمن قوانين خاصّة تسيّرها على نحوٍ عقلانيّ منظّم[1]...

١ - انظر: فلو، هناك إله، ص ٢١.

● **سابعًا: دوكنز كذَّاب مشعوذ:**

إنّ أمثال دوكنز يكتمون البيّنات، ويلوون عنق الحقيقة العلميّة، ويمارسون الدّجل والشعوذة والكذب بزخارف بلاغيّة ولفظيّة ومصطلحات علميّة، وهم يعرفون أنّ العلوم الطبيعيَّة في الحدّ الأدنى لا تنهض على إثبات اللا إله، بل أقصى حدّ ليس لها موقف. فدوكنز، هو الذي يعيش وهمًا ومرضًا أصيب به نتيجة فيروس «اللا إله»، لأنّه بمحاولة تلحيد العلوم الطبيعيَّة أي القول بأنّها علوم مُلحِدة، ينتهك القسم العلميّ الذي أخذه على نفسه في عدم توظيف العلوم إلّا في حقلها الخاصّ بها وعدم استغلالها إيديولوجيًّا للتطرف الإلحاديّ في محاربة الإيمان بالله، الذي طالما عاش الملحدون أمل أن الاستيقاظ صباحًا ليجدوا العالم خاليًّا من الإيمان بالله,تعالى، ثم يشتد حضور الله، تعالى، في حياة البشر أكثر فأكثر، فإنّ أزمة كوفيد ١٩ قد بلورت كيفية لجوءالإنسان في لحظات الأزمات إلى الله حيث يعجز العلم التجريبيّ عن تلبية حاجاته، كلّما انصرم الزمان وسارت البشريّة تجاه المستقبل كلّما تعمّقت فكرة الإيمان نتيجة الشعور بفراغ الحياة الماديّة، الإنسان مهما أشبع حاجاته الماديّة فإنّه يبقى يعيش حالة القلق والاضطراب والكآبة، بل كلما أشبع حاجاته المادية ولذاته الحسيّة أكثر كلّما غرق في بحر الأمراض النفسيّة والاضطرابات أكثر، لأنّه بطبيعته كائن روحيّ ينجذب إلى الأعلى، فما لم يعثر على المثل الأعلى في حياته -أي الله- فإنه سيبقى مضّطرب النفس هلوعًا، لأنّ الطمأنينة والسكون إنمّا تحصل في ظلّ حضور الله تعالى ﴿**ألا بذكر الله**

**تطمئن القلوب﴾**[الرعد: ٢٨]، **﴿إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا﴾**[فصلت: ٣٠]... إلخ.

فكلّما أعلن أحد هؤلاء الملحدين «موت الله»، كما فعل نيتشه، أو سارتر أو غيرهما، وجدنا أن الله, تعالى, يشتدّ حضوره في حياة البشر.ونلاحظ أن دوكنز يعقد مبحثًا خاصًّا ليناقش فيه أنّه إذا كان هناك إله ومصمّم ذكيّ فإنّه يكون على مستوى عالٍ من التعقيد، وهذا يستدعي أن نجد تفسيرًا للسؤال التالي: من صمَّم هذا المصمِّم العظيم؟ وبما أنّ المصمّم هو أكثر تعقيدًا من التصميم نفسه، فإنّ الإيمان بوجود الله يعني الإيمان بوجود ما هو أكثر تعقيدًا من التصميم نفسه، وهذا يستدعي تفسيرًا، وحجّة المتديّنين تعتمد على فكرة المتراجعة اللانهائيّة، فكلّما سألتهم عن ذلك استحضروا استحالة التسلسل، وهو تراجع زمنيّ لا يصلح أن يكون تفسيرًا، ومع ذلك يعيش دوكنز حالة التحيّر حول كيفيّة وجود البشريّة في هذا الكون في نقطة صالحة للحياة.وسنعقد المبحث الثالث لمناقشة هذه الفكرة.

## المبحث الثاني:
## عالم الفيزياء الكونيّة ستيفن هوكنغ

### ● أوّلًا: ستيفن هوكنغ وكتابه التصميم العظيم:

عالم الفيزياء الشّهير ستيفن هوكنغ، له مجموعة من الكتب حاول فيها

إثبـات نظرية بديلة عن الألوهية لتفسـير وجود الكـون والعالَم، وأنّ هذا التصميم الذكيّ الذي نشـاهده في الكون ليس وليد مُصمِّم ذكي وإله عالِم وصانـع مُتقِن، ومن أهمّ كتبه «التصميم العظيم»[1] The Grand Design، ويشاركه فيه صديقه «ليوناردو ملدينو»، الذي حاول فيه الإجابة عن الأسئلة المصيريّـة الكـبرى التي تضغط على عقل كلّ إنسـان، والتـي ذكرها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب, عليه السّلام في الحديث المنسوب إليه: «من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟»، فهوكنغ اعتبر أن كتابه هو مناقشـة لمجموعة هذه الأسئلة: لماذا هناك وجود؟ ولماذا وُجِد البشر في هذا الكون؟ ولماذا هناك هذ المجموعة من القوانين التي تحكم الكون وليسـت قوانين أخرى مغايـرة؟ كيف يتصرف هذا الكـون؟ ما هي طبيعة الواقـع والوجود؟ هل يحتـاج هـذا الكون إلى خالـق؟... مُعتبِرًا أنّه اسـتطاع في كتابـه أن يقدم أطروحة عن هذه الأسـئلة التي شـغلت الفكر البشريّ منذ آلاف السـنين، تغنيه عن اللجوء إلى نظرية الأديان في تفسـير الأكوان، وأنّ الله هو منشـأ الكون، أطلق عليها نظرية «تعدّد الأكوان» أو «الأكوان المتعدِّدة».

## ● ثانيًا: هوكنغ يخرج من العلم ويدخل بيت الفلسفة:

كما لاحظنا عند ريتشـارد دوكنز، إنّ هوكنـغ ،وإن حاول أن يعتمد على

١ - انظر: ستيفن هوكينغ، وليونارد مولدينوو، التصميم العظيم، إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى، ترجمة أيمن أحمد عياد، دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

مقدِّمات علميّـة, لكنه في النتيجة دخل المجال الفلسـفيّ الذي ليس من اختصاصـه، فإنّ الملحدين دائمًا ما ينطلقون من قواعد علميّة ليسـتنتجوا خلاصات فلسـفيّة، وهذه مفارقة عجيبة في منهجية التفكير، فإمّا أن تعتمد العلم أي الملاحظة الحسيّة والمنهج القائم على أساس الاستقراء والتجربة وتتحـرّك معه إلى آخر الخطّ على مسـتوى النتائـج والخلاصات، وتكون مُخلِصًـا لمنهجك العلميّ، وإمّا أن تسـكت، وليس مـن حقِّك أن تدخل إلى حقل الفلسـفة، إلاّ أن تؤمن بأنّ المنهج العلميّ ليس هو الوحيد الذي يتكفّل بالكشـف عن الحقيقة، وأنّ المعرفة البشريّة يمكن أن تعتمد العقل في عمليـة التفكير للوصول إلى فهم الوجود والكـون، وحينها إذا دخلت إلى هـذه الدائرة، فأنـت -أي الملحد المُنظِّـر- فقد خلعـت رداء الفيزياء أو البيولوجيـا أو علـم الفلك أو غيرها من العلوم الطبيعيَّة، ولبسـت ثوب الفلسـفة، وحينهـا تُحاكَم كفيلسـوف لا كعالم فيزيـاء أو أحياء، ولي من حقّـك أن تُطالِـب الآخرين أن يعاملوك خارج دائـرة اختصاصك بصفتك كعالِم بل كفيلسوف.

والذي نلاحظه عند هوكنغ، أنّه يعي في ذاته أنّ هذه الأسـئلة هي أسـئلة فلسـفيّة، ولكنـه يحـاول أن يتهرّب من ذلـك ، حيث يقـول: «في العادة، فإنّ هذه الأسـئلة أسئلة فلسـفيّة، ولكن الفلسفة ميّتة، لأنّها لم تتواكب مع التطوّرات الحديثة في العلوم، وبالخصوص في علوم الفيزياء، وبناءًعليه؛ فقد حمل علماء الطبيعة شعلة الاستكشاف والبحث، وهدف هذا الكتاب

هو تقديم إجابات من وحي الاكتشافات والنظريَّات الحديثة»[١].

وهـذه الفكرة غـير خاصة بهوكينـغ، فقد أشرنا سـابقًا إلى أنّ ريتشـارد دوكنـز قال: إنّ السـؤال عن الخالق هو سـؤال علميّ، وقد سـبقهما إلى ذلك الفلاسـفة التجريبيّون والمنطقيَّة الوضعيّة، إذْ أرادوا أن يجعلوا العلم أو البحـث الاسـتقرائيّ يقوم مقـام العقـل أو البحث الفلسـفي أو الفكر الاستنباطي، ولم تنجح هذه المحاولة، إذ سريعًا ما وجدوا أنفسهم بحاجة إلى الفلسـفة، فلجأت الوضعية المنطقيَّة للقول بأنّ الفلسفة فقط وظيفتها تحليل العبارات العلميّة.

إنّ الفلسفة بمعنى النظر العقليّ في الكون، لن تموت طالما أنّ هذه الأسئلة الوجوديّة المصيرية تطرق أبواب الذهن البشريّ، فالفلسفة ستبقى حيّة مادام الإنسان العاقل حيًّا، فإنّ البحث في الوجود والعدم وطبيعة الواقعيّة والعلل والأسـباب والقدم والحدوث والمادة ليس بحثًـا فيزيائيًّا، وإن كان من حقّ الفيزيـاء أن تتدخـل أحيانًا فيما يدخل تحت موضوعها كالمـادة الفيزيائيّة، ولكن البحث عن هذه المفاهيم هو بحث فلسفيّ بامتياز، واختلاف الأسماء لـن يغيّر الوقائع والحقائـق، وحينها نقول لدوكنز وهوكنغ ورسـل وغيرهم أهلاً وسهلاً بكم في بيتنا وحقل اختصاصنا أي الفلسفة.

---

١ - نقلاً عن: اللواتي، المُصمِّم الأعظم قراءة نقدية في كتاب التصميم العظيم لستيفن هوكنج، ص ١٤.

● **ثالثًا: الإلحاد بين نظرية الإثبات والفرضية المُحتَملة:**

ومن الناحية المنهجيَّة المفارقة الغريبة أيضًا التي يقع فيها هؤلاء، أنّهم في الوقت نفسه الّذي يعدُّون أنّ ما توصّلوا إليه هو نظرية إثبات، نراها عند المحاكمة في ضوء منهجهم أنّها لا تعدو أن تكون فرضية راجحة وليست نظرية إثبات، بحيث لا تُلغي احتماليّة تفسير الكون بفرضية أخرى وهي الألوهية، أي أنّ أقصى ما يمكن أن يصل إليه البحث العلميّ عندهم إلى نتيجة مفادها أنّ التفسير الأرجح للكون هو في عدم وجود إله، لا أنّه لا يوجد إله، فمثلاً عندما يقول هوكنغ: إذا ما استطاع نموذجان أو نظريتان وصف الظواهر نفسها، فلا يمكننا القول إنّ أحدهما أكثر واقعيّة من الآخر، بل نكون أحرارًا في اعتماد النموذج الذي نجده مريحًا أكثر لنا»، ويدّعم وجهة نظره هذه بقوله: «إنّنا وجدنا في تاريخ العلم سلسلة من النظريَّات والنماذج العلميّة التي كانت تتحسَّن مع تغيُّرها في وصفها للواقع؛ فمن نظريَّات أفلاطون إلى نظريَّات الفيزياء الكلاسيكية لنيوتن، إلى نظريَّات الفيزياء الكمِّيَّة الحديثة. وبناءًعليه؛ فمن حقنا أن نسأل: هل ستصل تلك السلسلة من النظريَّات إلى نهاية قصوى، ونظرية عُظمى؛ لتفسير الظواهر الكونيّة؛ بحيث تشمل كلَّ القوى الطبيعيَّة، وتقدِّم كلَّ التنبؤات المطلوبة لكل الملاحظات التي يُكن أن نجريها لكل شيء، أو أننا سنستمرُ للأبد في اكتشاف نظريَّات أفضل مما لدينا، ولن نصل إلى تلك النظرية التي لا يُكن تحسينها أو تطويرها أو استبدالها بغيرها؟ إننا لا

نملك إجابة عن هذا السؤال حاليًا، ولكن لدينا مرشح لمثل هذه النظرية، إن كان ثمة نظرية كهذه»[١].

خصوصًا أنّ هوكنغ يعود في بعض أجزاء كتابه ليتحدّث عن نموذج السمكة الذهبيّة، الموضوعة في وعاء مكوَّر، والتي ترى العالم من حولها من خلاله، فتفسّر القوانين العلميّة في ضوء رؤيتها للأشياء لخلاف نظرتنا نحن لها، وحينها يمكن القول: إنّ كلّ النماذج العلمية لوصف الواقع وفهم الكون قد تكون في جانب من جوانبها ناجحة، لأنّه صورة تقريبيّة عن الواقع وليس حقيقة الواقع كما هو في ذاته، وبالتالي تبقى كلّ نظرية قابلة للتعديل والتطوير والتحسين مع مرور الوقت، وقد لا نصل إلى قراءة وصفيّة للواقع في المستقبل تُعبِّر عند على نحوٍ دقيق تمامًا.

وبناء عليه، إنّ منهجية التفكير هذه القائمة على أساس هذه الرؤية المعرفيّة الخاصّة -وهي بعيدة تمامًا عن البحث العلميّ، فهي قراءة إبستمولوجيّة لكيفيَّة عمل العقل البشريّ وحواسّه واستنتاجته للقوانين، وليست بحثًا في الفيزياء، وإن استفادت من مقدِّمات فيزيائيّة، ولكن أخذ مقدّمة علميّة في دليل استنباطيّ لا يحوِّل النتيجة إلى علميّة-، لا يمكنها إقصاء أن يكون النموذج العلميّ لتفسير الكون على أساس نظرية الألوهية

١ - نقلاً عن: اللواتي، المُصمِّم الأعظم، ص١٦-١٧.

أمرًا غير مُحتمَل، وحينها يتأكّد تكرارًا ومرارًا ما ذكرنا سابقًا من أنّ الإلحاد الواقعـيّ بمعنى الاعتقاد اليقينـي بعدم وجود الله ليس لـه مكان في هذا العالم حتى عند أشدّ الملحدين تعصّبًا.

● **رابعًا: القوانين الفيزيائيّة بين التفسير العلميّ والتفسير الدينيّ:**

يفـسِّر هوكنغ بناء لنظريته هـذه قضية الألوهية في حيـاة البشر، وهو لا يـأتي بجديـد، بل يـردّد مقولات من سـبقه من الملحدين كبرتراند رسـل والماركسـيّين حول الجهـل، فيعدُّ «جهل البشر في القِـدَم بطرق الطبيعة، أدّى بهـم إلى اختراع آلهة تُعزى إليهـا كلّ مناحي الحياة البشريّة»، فكانت فكرة الإله هي النموذج العلميّ لوصف الواقع عند تلك الجماعات، وبما أنّ العلم اكتشف أسرار الطبيعة، فإنّ النظريَّات الحديثة القائمة على أساس علـم الفيزياء تحلّ محلّ ذلك النموذج في تفسـير ظواهر الطبيعة، فتكون الفيزيـاء هي النموذج العلمي لوصف الواقع بدل نظرية الألوهية المتولِّدة من الجهل، وهو هنا لا يختلف عن ما ذكره أوجست كونت قبله.

ويرى هوكنغ أنّه لا شكّ في أنّ الطبيعة محكومة لمجموعة من القوانين، وهذا أمر حسيٌّ مُشـاهد، ولكن سابقًا كان البشر يفسِّرون القوانين الطبيعيَّة والفيزيائيّة على أسـاس إلهيّ، فالله هو الذي أنشـأ هذه القوانين الكونيّة، والعقائـد الدينيّـة تعتـبر أنّه يمكن وجود حـالات اسـتثناء لهذها لقوانين الكونية كما في معجزات الأنبياء، ويقول هوكنغ بأنّ «هذه الإجابة لا تُعطي

تعريفًا للإله أكثر من كونه مُجرَّد تجسيم لمجموع قوانين الطبيعة»، وبالتالي هذه النظرية ليست إلّا عملية استبدال لغز -وهو منشأ قوانين الطبيعة- بسرّ غامض آخر – الله-، فلا تُقدِّم تفسيراً علميًّا.

ويطـرح هوكنغ سـؤالاً ثالثًـا: هل هنـاك مجموعة واحدة مـن القوانين الطبيعيَّـة؟ وبعبـارة أخرى هل هـذه القوانـين الحاكمة عـلى الكون هي القوانـين الوحيدة الممكنة؟ أم يُمكن فـرض عمل الكون في ضوء قوانين أخرى؟ وإذا كان الإله هو الذي أنشـأ القوانـين الطبيعيَّة، فهل اختار الإله هـذه القوانين من جملة بدائل وخيارات كثيرة كانت مطروحة أمامه، أم أنّه اضطّر إلى اعتماد هذه القوانين من دون غيرها؟

## ● خامسًا: أطروحة هوكنغ وفيزياء الكمّ:

يعتمد هوكنغ لإثبات نظريّته على فيزياء الكمّ، ودون أن ندخل في تفاصيل عـرض المقدِّمات التي يعتمد عليهـا، إلّا أنّ النتيجة التي تهمّنا هنا هي أنّه بنـاء لفيزياء الكمّ إنّ الكون ليس له ماضٍ معيّن ومحدّد، بل مجموعة غير متناهية التواريخ البديلة التي يصلح كلٌّ منها أ، يكون احتمالاً معيَّناً، ولكن ليـس لنا طريق لتعيين أيّ من هذه الاحتمالات هو النهائي، وذلك لأننا لم نكن عنصرًا مراقِبًا لبداية نشوء الكون وتشكّله في الماضي.

فالفيزياء الكميّة تقوم على أسـاس فكرة أنّ المُراقِب يؤدّي دورًا في تغيير الأحـداث ممّا يؤثِر على ماضيها، لأنّها ليـس لها ماضٍ محدَّد بمعزل عن

المراقِـب. ولتقديم الفكرة بوسـاطة مثال بسـيط، لو فرضنا أنّ شـخصا ما سيسافر من لبنان إلى الكاظميّة قاصدًا زيارة مرقد الإمامين الكاظم والجواد عليهما السّـلام، ولكن نجهل هل نزل في مطار النجف الأشرف وزار أمير المؤمنين ثم قصد الكاظمين عليه السّـلام، أم أنه نزل في مطار بغداد، فإننا إذا أردنـا أن نبحث عن ماضي حركته، وراقبنا لنعرف أي الطريقين سـلك، فإنّـه قد يكون سيسـلك طريق النجف الأشرف، ولكنـه لأنّه عرف مراقبتنا له، فغـير وجهته وقصد مطار بغداد، ولذلك سـيبقى الماضي مجهولاً لنا إن أردنا مراقبته.

فالماضي ليس عبارة عن سلسلة من الوقائع الحاصلة سواء علمنا بها أم لا، كـما هو في الفيزيـاء النيوتنية، بل الماضي الذي لم تحصل مراقبته هو أمر غير معيّن ولا محدّد، وإنما هو مجموعة من الاحتمالات والإمكانيات، وإن كان لاحتمال نسبة أكبر من غيره.

ومن الأمور التي شـغلت تفكير هوكنغ، هـي البداية الزمنية للكون، فإنَّ المؤمنين بالله يحتاجون إلى هذه النظرية التي تفسِّر الحدوث على أساس أنّ الله أوجد الأشـياء بعد أن لم تكن موجودة، ولكن بإمكاننا أن نتخلّص من هذه العقدة، أي عقدة «اللحظة الزمانية التي نشأ فيها الكون»، ونفسرها بطريقـة لا تحتـاج إلى الخالق والصانع، وذلك بأنّ نقـول بأنّ الزمان ليس بعدًا مسـتقلاً عن المكان، بل هو بعد رابـع بالإضافة إلى الطول والعرض والعمق، وحينها ننفي البداية الزمنية للكون، ولا معنى للسـؤال عن البداية

الزمنيــة للكون، وبنفيها ننفــي الموجِد لها، يقول هوكنــغ: «إن إدراكنا أن الزمن كان يسلك سلوك المكان يقدِّم لنا بديلاً جديدًا؛ فهو يُزيل الاعتراض القديم بأن الكون له بداية، ولكنه يعني أيضًا أن بداية الكون كانت محكومة بقوانين العلم، ولا يحتاج لأن يبدأه إله ما».

وبذلك نعود إلى النقطة التي وجهنا لها النقض مرارًا، وهي أنّه من وجهة نظر هوكنغ إنّ قوانين العلم تحلّ محل الإله الخالق.

● **سادسًا: الكون له مصمِّم ذكيّ ولم يوجد نتيجة ضربة حظ:**

لقد غفل هوكنغ، عن أنّه حتى لو جعل الزمان متشابكًا مع المكان فيكون بعدًا رابعًا، إلّا أنّ السؤال الأساس الذي يبقى مطروحًا هو من خلق المادة الأولى الأصليّــة التــي تكوّن منها الكون وهي ليســت أزليّة، بل مســبوقة بالعــدم، وإن لم يكن العــدم الزمانيّ، فليس كل أشــكال العدم هي العدم الزمانيّ فقط، لنسأل عن البداية الزمانيّة للكون، بل هناك العدم الذاتيّ، أي أنّه قبل الزمان كانت الأشــياء في ذاته معدومة، فمن الذي أوجد ما تشــكّل منه الزمان والمكان؟!! هو الله, تعالى.

وثانيًا: لا شــكّ في أنّ الكون يتحرّك في ضوء قوانين الفيزياء، ولكن من أوجــد هذه القوانــين العلميّة، أي من الذي جعل الكون يشــتغل في ضوء هذه القوانين العلميّة الخاصة؟!! هو الله، تعالى.

وثالثًــا: من الذي أوجد ظاهرة الوعي والحيــاة من المادة الأولى، والتي

هيَّـأت أن يُصمّم الكون بطريقة منظّمة توفّر للإنسـان كلّ ما من شـأنه أن يجعله قادرًا على العيش في وسط هذا العالم الفسيح؟!! إنّ الله تعالى.

إنه سـتيفن هوكنغ لا يغفل عن وجود التصميم العجيب في الكون، وهو نفسـه يطرح بعض الأمثلة العلميّة على ذلك، فقد عرض في بعض فصول كتابه بكلّ دقة النظام الشـمسي الأرضي الذي سـمح بنشـوء الحياة على الأرض، ولكنه قدَّم تفسـيراً بديلاً عن الإله المُصمِّم للكون، إمّا قائم على الحظّ عندما يعبرّ نحن «محظوظون».

يقول هوكنغ: «حوالي نصف عدد الأنظمة النجمية في الكون مُكوَّنة من نجمـين أو أكـثر، ولو كانـت الأرض تدور حول شمسـين اثنتين بدلاً من واحدة، فإن ذلك يسـتلزم أن تكون الأرض معرَّضـة لحرارة عالية جدًّا في فـترات، وحـرارة منخفضة جدًّا في فترات أخـرى، وكلا الأمرين لا يتواءم مع نشـوء الحياة على الأرض ... إذن فنحن «محظوظون» بوجود شـمس واحدة فقط في نظامنا الشمسي».

وإمّـا قائم على خرافة «تعـدّد الأكوان» حيث يقـول: إن وجود البلايين من الأنظمة الشمسـيّة في الكون، جعل من السـهل أن نفسر كون إحداها «نظامنـا الشـمسي» مُتوافقاً في تركيبتـه مع شروط نشـوء الحياة، وكذلك فـإن وجود البلايين من الأكـوان التي لكل منها قوانينهـا العلمية الخاصة يسهل علينا أنْ نستوعب وجود كَوْن واحد على الأقل منها له قوانين علمية وثوابـت رياضية مُتوافقة بالدقة مع شروط نشـوء الحيـاة في ذلك الكون،

دون الحاجة إلى مُصمِّم وخالق خاص لذلك».

ما عشت أراك الدهر عجبًا على هذا التفسير القائم على أساس فرضيَّة تؤول إلى المصادفةالمصادفة والحظ أيضًا، وليس لها أي دليل علميّ على إثباتها، وعلى فرض إثباتها تتعقّد عملية الإجابة عليه أكثر، لأنّها تكون شاهدًا مؤيِّدًا على مدى عظمة الخالق تعالى.

وعلى كلّ حال، سنطرح في المبحثين اللاحقين ما يؤدي إلى بيان مدى سخافة نظريَّات دوكنز وهوكنغ وأمثالهما، فضلاً عمّا تبين في المباحث السابقة.

## المبحث الثالث:
## من صمَّم المصمّم العظيم؟ أو من خلق الله؟

### ● أوّلًا: إذا كان ينبغي أن يكون لكلّ شيء سببٌ، إذًا، ينبغي أن يكون للإله سبب:

ذكرنا سابقًا أن دوكنز عقد مبحثًا خاصًّا ليناقش فيه أنّه إذا كان هناك إله ومصمّم ذكيّ فإنّه يكون على مستوى عالٍ من التعقيد، وهذا يستدعي أن نجد تفسيراً للسؤال التالي: من صمَّم هذا المصمّم العظيم؟ وبما أنّ المصمّم هو أكثر تعقيدًا من التصميم نفسه، فإنّ الإيمان بوجود الله يعني

الإيمان بوجود ما هو أكثر تعقيدًا من التصميم نفسه، وهذا يستدعي تفسيرًا، وحجّة المتديّنين تعتمد على فكرة المتراجعة اللانهائيّة، فكلّما سألتهم عن ذلك استحضروا استحالة التسلسل، وهو تراجع زمنيّ لا يصلح أن يكون تفسيرًا، ومع ذلك يعيش دوكنز حالة التحيّر حول كيفيّة وجود البشريّة في هذا الكون في نقطة صالحة للحياة.

يفترض المنطق العلميّ والاتجاه التجريبيّ أنّ علاقات التأثير والتأثّر بين الأشياء والظّواهر في عالم الطّبيعة إنّما نشأت في ذهن الإنسان نتيجة الأنس الذهني والعادة، وليس كما يدّعيه المنطق العقلي بأنّ التأثير والتأثّر بين الأشياء هو نتيجة رابطة ضروريّة وذاتيّة بين الأشياء، بل هي مجرد علاقة اتفاقية، فعندما يشاهد الإنسان بشكر متكرِّر الإحراق يقع بعد وجود النّار، يطلق على هذا التعاقب المستمر بين النّار والإحراق اسم العليّة والسّببيّة، فمشاهدة وجود النّار وحضور صورتها في الذّهن تستدعي تصور الإحراق دون أن يكون هناك علاقة لزوميّة بينهما في الخارج على نحو يستحيل انفكاكهما، فحال العلاقة بين النّار والإحراق كحال العلاقة بين صديقين متلازمين، فلو شاهد الإنسان مثلاً عليًّا وصديقه محمدًا معًا على نحوٍ متكرر، سينتقل ذهنه عند رؤية عليٍّ إلى تصوّر صديقه محمد دون أن يكون بين علي ومحمد رابطة ضروريّة ذاتيّة بل مجرد اقتران متكرّر.

وإذا كان الأمر كذلك، فلا يمكننا الاستدلال من وجود العالَم على

وجود الخالِق والصّانع، لأنّه لا علاقة لزوميّة بين الحادثة والسّبب، بل هو مجـرد اقتران وتعاقب، فلا مانع من وجود هذا العالم عن طريق المصادفة والاتفاق دون أن يكـون وراءه صانع ومصمِّم. وعلى فرض صحة قانون العليّـة، فإذا كان لـكلّ موجود علّة فحينها يأتي السّـؤال: ما هي علّة اللّـه؟ وبما أنّه «لا علّة للـه» كما يدّعي المؤمنون، فإمّا أن ننكر قانون العليّة رأسًا، وإمّا أن نعتقد بوجود الاستثناء فيه.

وعـلى الفرض الأول: أيّ إنكار قانون العليّـة، لا يكون هناك دليل على وجـود اللّه، لأنّ انتقال الذهن من العلم بوجود الحادث والممكن والنّظام و... إلى العلـم بوجود المُحدِث والواجب والمُنظِّم إنّما يتمّ مع التسـليم بقانون العلّية والتلازم والسّببيّة.

وعلى الفرض الثّاني: يقول الفلاسـفة والمناطقة بـأنّ القواعد العقليَّة لا تقبل الاستثناء والتخصيص[1] بخلاف القواعد القانونية والشرّعيّة، وحينها لا يصحّ الاعتقاد بأنّ اللّه يخرج عن قانون العليّة استثناءً.

---

١ - لأنّها لو قبلت الاستثناء لبطلت، لأنّ الموضوع في القضيّة العقليَّة هو العلّة التامة لمحمول القضيّة، يقول صدر المتألهين: « التخصيص في الأدلّة العقليَّة اعتراف ببطلانها، حيث يتخلّف المدلول عنها»، الحكمة المتعالية في الأسفار العقليَّة الأربعة، ج٢، ص١٤٧. وأينما وجدت العلّة وجود المعلول، فقولنا مثلاً: اجتماع النّقيضين محال، فإنّ الموضوع: اجتماع النّقيضين هو تمام العلة للحكم بالاستحالة والامتناع، فلو أمكن استثناء فرد واحد من عموم القاعدة العقليَّة للزم كذبها، وذلك لأنّ السّالبة الجزئية نقيض الموجبة الكليّة، فإذا صدقت بعض المعلول لا علة له، كذبت كلّ معلول له علّة...

فلا يبقى إلّا أن نؤمن بقانون العليّة من دون استثناءٍ، وحينها نسأل: ما هي علّة اللّه؟ ومن خلقه؟

يقول الفيلسوف الملحد برتراند رسل: «إذا كان ينبغي أن يكون لكلّ شيء سبب، إذًا، ينبغي أن يكون للإله سبب، وإذا كان من الممكن أن يكون هناك إله من دون علّة أو سبب، يمكن إذًا أن يكون العالم من دون علّة أو سبب، مثل الإله تمامًا»[1].

## ● ثانيًا: قانون العليّة ثابت بالفطرة والعقل:

### أ. الشعور الفطريّ بقانون السببيّة العام

يهتدي الحيوان بغريزته التي أودعها اللّه, تعالى, فيه إلى وجود ارتباط بين الأشياء، فيهرب من النّار لشعوره بأنّها محرقة، ويلتفت إلى الصّوت إذا صدر من مكان ما، لشعوره بوجود ذي الصّوت في ذلك المكان... إلخ، فذهن الحيوان يعمل في ضوء قانون السّببيّة، وإن لم يُدرِك ذلك بصورة واعية، وهكذا هو حال الطّفل أيضًا، وهذا دليل واضح على غريزيّة وفطريّة الشّعور بقانون السّببيّة العامّ، وإن لم يكن هذا الشّعور ملتفَتًا إليه على نحو تفصيليّ واعٍ.

فالإنسان يمارس في حياته الاعتياديّة واليوميّة قانون السّببيّة وإن لم يشعر بذلك، فإذا سمع طرقة الباب يذهب إلى فتح الباب لعلمه بوجود الطّارق،

---

١ - رسل، لماذا لست مسيحيًا؟ ص١٢.

فالعلم بالطّرقة يستلزم انتقال الذّهن إلى العلم بوجود الطّارق، وكذلك إذا رأى الدّخان فإنّه يعلم بوجود النّار، وهكذا يستطيع عقل الإنسان أن يربط بين شيئين على نحو التلازم والضّرورة، وإلّا لما بحث المُلحد نفسه عن علّل الأشياء، لأنّه ما المانع حينها من أن توجد ظاهرة الزّلزال أو الرّعد أو البرق بلا علّة؟!! وما المشكلة في أنّ يأخذ المريض المُصاب بداءِ (أ) الدّواء المختصّ بالمرض (ب) إذا نفينا العلاقة الذاتيّة اللزوميّة؟!! وكذلك لو لم نؤمن بقانون العليّة والسّببيّة بمعنى وجود علاقة لزوميّة ضروريّة ذاتيّة بين شيئين لما أمكن أن يستدلّ الإنسان على أيّ شيء، بل أمكن الاستدلال بأيّ شيء على أيّ شيء، لأنّ طبيعة الاستدلال قائمة على أساس أنّ مقدّمات معيّنة تنتج نتيجة مناسبة لها ولا تنتج أيّ نتيجة، فلولا قانون السّببيّة ما المشكلة في أن نقول: الرّمان أحمر، والتفاح فاكهة، إذًا البحر مالح؟!! بينما يجد الإنسان فرقًا واضحًا بين هذا القياس وبين قولنا: الماء سائل، والسّائل يتمدّد بالتسخين، فالماء يتمدّد بالتسخين.

إنّ الإيمان بقانون السّببيّة الذي يقول إنّ لكلّ حادثةٍ وواقعة سببًا خاصًّا، مبدأ عقليٌّ قبل التجربة يؤمن به الإنسان اضطرارًا، وهو مبدأ فطري غني عن البرهنة والاستدلال.

**ب. الربط بين الظواهر الطبيعيَّة ومعرفة خصوصيّة المؤثِّر:**

وبهذا يتبيّن أيضًا، أنّ ذهن الإنسان لا ينتقل من مجرّد عمليّة الرّبط بين شيئين، بل أيضًا إلى الرّبط بين خصوصيّة الشّيء المتُأثِّر وطبيعة السّبب المؤثِّر، بمعنى أنّ طبيعة الشّيء المعلول وخصائصه وصفاته ومميّزاته،

تكشـف عن طبيعة السّـبب الفاعل والمؤثّر في وجود ذلـك الشّيء. فإذا شـاهدنا لوحـة فنّيّة جميلة، نعرف أنّ الرّسـام ماهر ومحـترف، وإذا نظرنا إلى شـكلٍ هندسيّ معماريّ منظّم نعرف أنّ الذي قام بهذا العمل مُهندِس حاذق... إلخ، فخصوصيّات الأثر تدلّ على خصوصيّات المؤثِّر.

وخلاصة النّقطتين المتقدِّمتين: أنّ قانون العلّيّة ثابت بحكم الفطرة والعقل، ولولا ثبوته لانهار المذهب التجريبيّ. وبالتالي يمكن الاسـتدلال على وجود اللّه تعالى. ويمارس الإنسـان الاستدلال على وجود اللّه تعالى بقانون السّببيّة على نحوٍ فطري، فينتقل ذهنه من العلم بخصائص العالَم المحيط به والظّواهر الطبيعيَّة التي يشـاهدها إلى العلم بوجـود العلّة والخالق والصّانع... والقصّة المشـهورة للأعرابيّ الذي سُئِل عن الدّليل على وجود الصّانع، اعتمدت على عنـصر الإيمان القبليّ بقانون السّـببيّة العامّ، إذ قال: البعـرة تدلّ على البعير، وآثار الأقدام تدلّ على المسـير، أفسـماءٌ ذات أبـراج، وأرض ذات فجاج، لا تدلّ على وجود اللطيف الخبير؟! وهذا ما نلمسه في منهج أهل البيت، عليهم السّلام، فعندما سُئل أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام عن إثبات الصّانع؟

أجـاب: «البعرة تدلّ على البعير، والرّوثة تدلّ على الحمير، وآثار الأقدام تدلّ على المسـير، فهيكل علويّ بهذه اللطافة، ومركز سفليّ بهذه الكثافة، كيف لا يدلّان على اللطيف الخبير؟!»[1].

١ - المجلسي، بحار الأنوار، ج٣، ص٥٥.

● **ثالثًا: لا جواب صحيحًا على سؤال خاطئ:**

هل لكلّ سؤال جواب؟ في الواقع، لا جواب صحيحًا لسؤال غير صحيح. وسؤال: من خلق اللّه؟ خاطئ وينطوي على مغالطة منطقيّة، لأن هذا السّؤال يفترض أنّ اللّه مخلوقٌ، وكلمة «مخلوق» - إذا أردنا التفنّن اللغويّ - على وزن مفعول، وهو اسم يدلّ على من وقع عليه فعل الفاعل، واللّه ليس مخلوقًا، فلا يُسأل عن فاعله وخالقه، وإلّا لو كان ما أطلق عليه اسم «اللّه» مخلوقًا، لما كان هو اللّه حقيقة، كما هي الحال في كائنات كثيرة أطلق عليها الوثنيّون اسم الإله، كالشمس والقمر والصّنم والبقرة... فكلّ ما افترض أنّه مخلوق فهو ليس اللّه، لذا، فإنّ السّؤال: من خلق اللّه؟ هو أشبه بسؤال: من مَشْمَشَ التفّاح؟ أيّ من جعل التفاح مشمشًا، مع أنّ التفاح هو التفاح وليس المشمش!!

إنّ هؤلاء الملاحدة والزنادقة قد حرّفوا الكلم عن مواضعه وقانون السّببيّة عن مدلوله ومعناه، وذلك بتبديل موضوع القضيّة بموضوع آخر، فقانون السّببيّة يقول: كلّ معلول له علّة، أو كلّ مسبَّب له سبب، في حين أنّهم وضعوا بدل مفردة «معلول» كلمة أخرى هي: «شيء»، فقالوا: «كلّ شيء له علّة»، أو كلّ موجود له علّة، إلّا أنّ العقل لا يرى أنّ كلّ شيء أو كلّ موجود يجب أن يكون له علّة، بل يرى أنّ كلّ معلول له علّة أو كلّ ممكن له علّة أو كلّ حادث له علّة، لأنّ الممكن أو المعلول أو الحادث هو الشّيء الذي لا يملك الوجود من ذاته بل يحتاج في وجوده

إلى مؤثّر خارجيّ يعطيه الوجود ويُخرِجه من دائرة الإمكان وتساوي النّسبة إلى الواقع.

ولـو سـألنا العقل: هل يمكن أن نفترض شـيئًا هو علّـة وليس معلولاً؟ لأجـاب بأنّه يجب أن يكـون هناك شيء هو علّة وليـس بمعلول. وذلك، لاسـتحالة التسلسـل في الأسـباب والمسـبّبات لا إلى نهاية، إذ لا بدّ من الوقوف عند مسـبِّب ليس وراءه سـبب، لأنّه لو لم يكن هناك موجود غنيٌّ لا يحتـاج إلى موجود آخر، لما وُجِد شيءٌ في الكون، لأنّنا سـنفترض أنّ كلّ سلسـلة الوجود تكون حادثة ومحتاجة وممكنة، ولا تتمكّن من إخراج نفسـها بنفسـها من دائرة اللاوجـود إلى الوجود، لكنّه قـد وُجِد شيء في الكون، إذًا يوجد موجود غنيّ أفاض على سلسلة المعلولات والممكنات الوجود فوُجِدت.

والعجـب، كيف يرتضي الملحد أن تكون المـادّة التي تتميّز بخصائص اللاوعـي والـلاذكاء والتغـيّر والتحـوّل والنّقـص والمحدوديّـة... أزليّة ومسـتغنية عن الموجِد والسّبب؟!! في حين أنّه يريد أن يكون هناك سبب وعلّـة للإله - المفروض أنّـه يتميّز بالغنى والكمال المطلـق واللاتناهي- أسـبق منه في الوجود؟!! إنّ الاعتقاد بأنّ الغني المطلق قديم وأزليّ وغير محتـاج إلى العلّة أهون خطبًا عند العقل من الاعتقاد بأنّ النّاقص الحادث المتغيّر غير محتاج إلى العلّة والسّبب.

## المبحث الرابع:
## الدليل العلميّ على وجود الله, تعالى

ذكرنا سابقًا أنّه يمكن اعتماد الدليل العلميّ على وجود الله,تعالى، وفي هذا المبحث سنعرض الدليل العلميّ الذي ذكره الشهيد السيد محمد باقر الصدر على وجود الله, تعالى.

### ● أوّلاً: تعريف الدليل العلميّ:

هو كلّ دليل يعتمد على الحسّ والتجربة ويتّبع منهج الدليل الاستقرائيّ القائم على حساب الاحتمالات. وسنشرح أوّلاً خطوات هذا المنهج الذي نعتمد عليه في حياتنا اليوميّة، ويستخدمه العلماء في البحوث التجريبيّة، ثمّ ننظر هل يُمكننا تطبيق خطوات هذا الدليل على الظواهر الكونيّة، لنثبت وجود الصانع الحكيم؟ أم أنّ اتّباعُ خطوات الدليل العلميّ تُوصلنا إلى أنّ الكون وُجد مصادفة ولا من شيء؟

يُمكن تلخيص هذا المنهج بخمس خطوات، هي:

**أوّلاً:** نُواجه في مجال الحسّ والتجربة ظواهر عديدة.

**ثانياً:** ننتقل بعد ملاحظتها وتجميعها إلى وضع فرضيّة صالحة لتفسير تلك الظواهر وتبريرها جميعاً، بمعنى أنّها إذا كانت ثابتة في الواقع فهي تتناسب مع وجود جميع تلك الظواهر التي هي موجودة فعلاً.

**ثالثـاً:** نُلاحظ أنّ هـذه الفرضيّة إذا لم تكن صحيحـة في الواقع، ففُرصة وجود تلـك الظواهر كلّها مجتمعة ضئيلة جدًّا، كواحد في المائة أو واحد في الألف وهكذا.

**رابعـاً:** نسـتخلص من ذلـك، أنّ الفرضيّـة صادقة، ويكـون دليلنا على صدقها وجود تلك الظواهر التي أحسسنا بوجودها في الخطوة الأولى.

**خامسـاً:** إنّ درجة إثبات تلك الظواهر للفرضيّـة المطروحة في الخطوة الثانية، تتناسـب عكسيّاً مع نسـبة احتمال وجود تلك الظواهر جميعاً إلى احتمال عدمها على افتراض كذب الفرضيّة، فكلّما كانت هذه النسـبة أقلّ كانـت درجة الإثبات أكبر، حتّى تبلغ في حالات اعتياديّة كثيرة، إلى درجة اليقين الكامل بصحّة الفرضيّة.

## ● ثانيًا: تطبيق خطوات الدليل العلميّ على الظواهر الكونيّة:

### ١. الخطـوة الأولى: التوافق المطّرد بين الظواهر الطبيعيَّة وحاجات الإنسان:

نُلاحـظ توافقاً مطّرداً بين عدد هائل مـن الظواهر المنتظمة، وبين حاجة الإنسان كائنًا حيّاً وتيسير الحياة له، على نحوٍ نجد أنّ أيّ بديل لظاهرة من تلك الظواهر يعني انطفاء حياة الإنسان على الأرض أو شلّها.

فيما يلي نذكر عدداً من تلك الظواهر كأمثلة:

تتلقّـى الأرض من الشـمس كمّيةً من الحـرارة تمدّها بالـدفء الكافي

لنشـوء الحياة وإشـباع حاجة الكائن الحيّ إلى الحـرارة، لا أكثر ولا أقلّ. وقـد لُوحظ علميّاً أنّ المسـافة التي تفصل بين الأرض والشـمس، تتوافق توافقـاً كاملاً مع كمّية الحرارة المطلوبة من أجل الحياة على هذه الأرض، فلـو كانت ضِعْفَ ما عليهـا الآن، لَمّا وُجدت حرارة بالشـكل الذي يُتيح الحيـاة، ولو كانت نصف مـا عليها الآن، لتضاعفت الحـرارة إلى الدرجة التي لا تُطيقها حياة.

ونُلاحـظ أنّ قشرة الأرض والمحيطات تحتجز - على شـكل مركّبات - الجزء الأعظم من الأوكسـجين، حتّى إنّه يكوّن ثمانية من عشرة من جميع الميـاه في العالم، وعلى الرغم من ذلك ومن شـدّة تجاوب الأوكسـجين مـن الناحية الكيمياويّـة للاندماج على هذا النحو، فقـد ظلّ جزءٌ محدود منه طليقاً يُسـهم في تكوين الهواء، وهذا الجـزء يُحقّق شرطاً ضرورياً من شروط الحياة، لأنّ الكائنات الحيّة، من إنسـان وحيـوان بحاجة ضروريّة إلى أوكسـجين لكي تتنفّس، ولو قُدّر له أن يُحتجز كلّه ضمن مركّبات لَما أمكن للحياة أن تُوجد.

وقد لوحظ أنّ نسبة ما هو طليق من هذا العنصر، تتطابق تماماً مع حاجة الإنسان وتيسير حياته العمليّة، فالهواء يشتمل على ٢١٪ من الأوكسجين، ولو كان يشتمل على نسبة كبيرة لتعرّضت البيئة إلى حرائق شاملة باستمرار، ولو كان يشتمل على نسبة صغيرة لتعذّرت الحياة أو أصبحت صعبة، ولَما توفّرت النار بالدرجة الكافية لتيسير مهمّاتها.

ونلاحظ ظاهرةً طبيعيّةً تتكرّر باستمرار ملايين المرّات على مرّ الزمن، تُنتج الحفاظ على قدر معيّن من الأوكسجين باستمرار، وهي أنّ الإنسان والحيوان عموماً، حينما يتنفّس الهواء ويستنشق الأوكسجين يتلقّاه الدم ويُوزّع في جميع أرجاء الجسم، ويُباشر هذا الأوكسجين في حرق الطعام، وبهذا يتولّد ثاني أوكسيد الكربون الذي يتسلّل إلى الرئتين ثمّ يلفظه الإنسان، وبهذا يُنتج الإنسان وغيره من الحيوانات هذا الغاز باستمرار، وهذا الغاز بنفسه شرط ضروريّ لحياة كلّ نبات، والنبات بدوره حين يستمدّ ثاني أوكسيد الكربون يفصل الأوكسجين منه ويلفظه ليعود نقيّاً صالحاً للاستنشاق من جديد.

وبهذا التبادل بين الحيوان والنبات أمكن الاحتفاظ بكمّية من الأوكسجين، ولولا ذلك لتعذّر وجود هذا العنصر وتعذّرت الحياة على الإنسان نهائيّاً. إنّ هذا التبادل نتيجة آلاف من الظواهر الطبيعيّة التي تجمّعت حتّى أنتجت هذه الظاهرة التي تتوافق بصورة كاملة مع متطلّبات الحياة.

ونلاحظ أنّ النتروجين بوصفه غازاً ثقيلاً أقرب إلى الجمود، يقوم عند انضمامه إلى الأوكسجين في الهواء بتخفيفه بالصورة المطلوبة للاستفادة منه.

ويلاحظ هنا أنّ كمّيّة الأوكسجين التي ظلّت طليقةً في الفضاء، وكمّيّة النتروجين التي ظلّت كذلك هما منسجمتان تماماً، بمعنى أنّ الكمّيّة الأولى هي التي يُمكن للكمّيّة الثانية أن تخفّفها، فلو زاد الأوكسجين أو قلّ النتروجين لَما تمّت عمليّة التخفيف المطلوبة.

ونلاحظ أنّ الهواء كمّيّة محدودة في الأرض، قد لا يزيد على جزء من مليون من كتلة الكرة الأرضيّة، وهذه الكمّيّة بالضبط تتوافق مع تيسير الحياة للإنسان على الأرض، فلو زادت نسبة الهواء على ذلك أو قلّت لتعذّرت الحياة أو تعسّرت، فإنّ زيادتها تعني ازدياد ضغط الهواء على الإنسان، الذي قد يصل إلى ما لا يُطاق، وقلّتها تعني فسح المجال للشُّهب التي تتراءى في كلّ يوم لإهلاك من على الأرض واختراقها بسهولة.

ونلاحظ أنّ قشرة الأرض التي كانت تمتصّ ثاني أوكسيد الكربون والأوكسجين محدّدة على نحوٍ لا يُتيح لها أن تمتصّ كلّ هذا الغاز، ولو كانت أكثر سماكةً لامتصّته، ولهلك النبات والحيوان والإنسان.

ونُلاحظ أنّ القمر يبعُد عن الأرض مسافةً محدّدةً، وهي تتوافق تماماً مع تيسير الحياة العمليّة للإنسان على الأرض، ولو كان يبعُد عنّا مسافةً قصيرةً نسبيّاً، لتضاعف المدّ الذي يُحدثه وأصبح من القوّة على نحوٍ يُزيح الجبال من مواضعها... وغير ذلك

من الظواهر التي لا تُعدّ ولا تحصى، والمثبتة بالتجربة في العلوم الطبيعيَّة المختلفة.

**٢. الخطوة الثانية: فرضية وجود الصانع:**

نجد أنّ هذا التوافق المستمرّ بين الظاهرة الطبيعيَّة ومهمّة ضمان الحياة وتيسيرها في ملايين الحالات، يُمكن أن يفسّر في جميع هذه المواقع

بفرضيّة واحدة، وهي أن نفترض صانعاً حكيماً لهذا الكون، قد استهدف أن يوفّر في هذه الأرض عناصر الحياة ويُيسّر مهمّتها، وهذه الفرضيّة تستبطن كلّ هذه التوافقات.

**٣. الخطوة الثالثة: ماذا لو افترضنا عدم وجود الصانع؟**

نتساءل: إذا لم تكن فرضيّة الصانع الحكيم ثابتةً في الواقع؟ فما هو مدى احتمال أن توجد كلّ تلك التوافقات بين الظواهر الطبيعيَّة ومهمّة تيسير الحياة، من دون أن يكون هناك هدفٌ مقصود؟ من الواضح أنّ احتمال ذلك يعني افتراض مجموعة هائلة من الصُّدَف، لأنّ افتراض المشابهة في ألف صفة ضئيل بدرجة كبيرة في حساب الاحتمالات، فما ظنّك باحتمال أن تكون هذه الأرض التي نعيش عليها بكلّ ما تضمّه، من صُنع مادّة غير هادفة ولكنّها تُشابه الفاعل الهادف الحكيم في ملايين ملايين الصفات؟

**٤. الخطوة الرابعة:** نرجّح بدرجة لا يشوبها الشكّ أن تكون الفرضيّة التي طرحناها في الخطوة الثانية صحيحةً، أي إنّ هناك صانعاً حكيماً.

**٥. الخطوة الخامسة:** نربط بين هذا الترجيح وبين ضآلة الاحتمال التي قرّرناها في الخطوة الثالثة. ولمّا كان الاحتمال في الخطوة الثالثة يزداد ضآلةً كلّما ازداد عدد الصُّدف التي لا بدّ من افتراضها فيه - كما عرفنا سابقاً-،

فمــن الطبيعيّ أن يكون هذا الاحتمال ضئيــلاً بدرجةٍ لا تمُاثلها احتمالات الخطوة الثالثة في الاســتدلال على أيّ قانون علميّ، لأنّ عدد المصادفات التــي لابدّ من افتراضها في احتمال الخطــوة الثالثة هنا أكثر من عددها في أيّ احتمال مُناظر، وكلّ احتمال من هذا القبيل فمن الضروريّ أن يزول.

● **ثالثًا: بين التصميم الذكيّ والمصادفة العمياء:**

يقول الفيلسوف صدر المتألهين الشيرازي: «شهادة كلّ فطرة سليمة على أنّ فاعــل هذا الترتيــب العجيب والنظم المحكم، يســتحيل أن تكون قوّة عديمة الشعور»[1].

أيّها الملحد، عندما تصدّق أنت أنّ قِرداً على الرغم من أنّه يتمتّعُ بالحياةِ والشــعورِ والإدراكِ الحــسّيّ، ودرجةٍ من الذكاء - بغضّ النظر عن نســبتها رياضيّــاً - قــادرٌ وبفعلِ عاملِ المصادفة، على تأليــف كتابٍ واحد، ينقضُ فيه نظريَّات ســتيفن هوكينغ وريتشارد دوكنز. حينَها فقط قدً أصدّق أنا، أنّ الفــراغَ العدمــيَّ، أو المادّةَ العمياء أو المصادفة الصــمّاء، قد أوجَدَت كلَّ هذه الكائناتِ العجيبةِ بتصميمِها الذكيّ الذي أذهلَ عقول العلماء!

فهل هناك وراء هذه الكائنات - التي تثيرُ الدهشةَ بدقَّةِ تصميمِها، وتحيرُّ العقــولَ بتناغمها الوجوديّ - مصمّمٌ ذكيّ أبدَعَها؟! أهي أخرَجَت نفسَــها

---

١ صدر المتألهين الشيرازي، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج٩، ص١١٨.

من فراغٍ عدميٍّ إلى الوجود بفعل المصادفة واللاشيئيّة؟!

في رحلة البحث منذ بَدء النظرِ في الوجود حتّى اليوم، ثمّة فرضيّتان لم يعثرِ العقلُ بعدُ على ثالثةٍ لهما: إمّا المصمّمُ الذكيّ وإمّا المصادفة العمياء، وفي الأعمّ الأغلب كان التصويت لمصلحة: نعم، الله موجود.

إنّ عالِم الحيوان أو عالِم النبات أو عالم الفلك، عندما يكتبون في مسألةٍ واحدة فقط، عن حيوانٍ فردٍ أو نبتةٍ واحدةٍ أو كوكب صغير، فإنّهم قد يكتبون آلاف الصفحاتِ التي تحتوي تفاصيلَ عجيبةً عن صُنعه ودقّة هندسته، وعن القوانينِ الداخليّةِ التي تحكُم وجودَه. ولا ريْب في أنّها تفوقُ آلافَ المرّات التصميم الذكيّ الموجودَ في الهاتف المحمول، والذي لا يُمكن أن تُصدِّقَ عندما تنظُرُ إليه، بأنه صناعةُ المصادفة والعدم. بل هو إنجازُ مصمّم ذكيٍّ ياباني أو أمريكيّ أو آخر...؟!!

هذه هي التجربةُ اليوميّةُ لكلّ واحد منّا في الحياة، مع الهاتف والتلفاز والسيّارة والحاسوب وديوان الشعر والمنزل الجميل و...، فلا نتصوّر يوماً أنّ واحدةً منها قد خرَجَت إلينا من اللاشيء، ووضَعَت نفسَها بين أيدينا. بينَما يريدُ الملحدُ أن نتصوّرَ مليارات الكائناتِ التي تفوقُها ذكاءً في التصميم، قد خرَجَت إلينا من اللاشيء والعدم؟!!

ما عشتَ أراكَ الدهرُ عَجَباً!

نعم، إنّه جنون الإلحاد. عندما يريد الملحدُ أن نصدّقَ ما يتناقض مع أبسطِ قوانين العقل والتجربة، ونكذّبَ ما تشهدُ عقولُنا ببداهتِه!

إنّها خديعةُ الإلحاد التي تكمُن في تحويلِ اليقينِ البديهيّ بقضيّة أنّ «الله موجـود»، إلى مجرّدِ فرضيّةٍ محتملة, أو فرضيّةٍ قد تجمَّعَت القرائنُ والأدلّةُ على نفيها بوساطة رشقاتٍ من الشُّبهات البروباغانديّة والأسطوريّة.

هل يُعقل أن تكون مجموعةُ الأنظمةِ والقوانينِ التي تضبطُ إيقاعَ العناصرِ المختلفةِ في الكون، في شبكة مترابطة ومنسجمة، مصادفة؟!

هل يُعقل أنّ هذا الانسـجامُ الكونيّ الذي يسيرُ نحو هدفٍ مشترك، وهو أن يكون صالحاً لحياة الإنسان وعيشه فيه، مصادفة؟!

لو فرضنـا – أدب الحوار - أنّ المـادّةَ الفاقدةَ للحياةِ والشـعورِ والذكاء والإدراك، قـد تحوّلت عـبر مليارات السـنين ذاتيّاً إلى كائنـاتٍ حيّةٍ ذكيّةٍ مدركـة (على الرغم مـن أنّ فاقد الشيء لا يمكن أن يكـون مُعطيّاً لهً؟!)، يبقى السـؤال الذي لم يسـتطع أيّ ملحد أن يجيب عنه: من أوجد المادّة الأولى؟

ولـو فرضنـا – بأدب الحـوار أيضاً – أزليَّـة المادة، فمن أبـدَعَ القوانين (كقانون الحركة والجاذبيّة والتمدّد و...) التي ساعدت المادّة على التحوّل إلى ما نُعاينُه من كائنات؟!

الواقـع أنّ وجودَ النظـمِ والقوانينِ والتصميمِ الذكيّ، يطـرُدُ فكرةَ العبثيَّةِ والمصادفة خارج التاريخِ المعرفيّ للبشر. وذلك بتضاؤلِ نسـبةِ احتمالها رياضيّاً إلى درجةٍ تُقارب الصفر. ما يجعلُنا نسـتبعدُ على الأقل، فرضيّةَ أنَّ قوّةَ النّظم قد حصَلَت من الطبيعةِ ذاتِها، من دون حاجةٍ إلى مؤثّر خارجيّ.

وقد يقتحِم علينا من يُنكرُ فكرةَ النظامِ في الكون، فما يُقال عنه إنَّه نِظام، ما هــو إلاّ وهمٌ صاغَه الذهنُ البشريّ، وإلاّ كيف نفسّرُ وجودَ التســونامي والفياضانات والزلازلِ والبراكين... إلخ، فهل هذه فوضى أم نظام؟

لعلّه غَفَلَ عن أنَّ ما ذكرَه يؤكّدُ فكرةَ النظام ولا يُلغيها. فهو مع ماذا يقارنُ هذه الظواهر الطبيعيَّة؟ ولماذا لم يختر إلاّ بعض عناصر الطبيعة؟

إنّــه يقارنُها مع فكرة النظام كي يراها فوضى، وعليه فإنّ الشيء قد «يُظهرُ حســنَه الضدُّ». كما أنّ فكــرةَ وجودِ أنظمةٍ وقوانينَ تحكُــم حركةَ الظواهرِ الكونيّةِ بصورةٍ متَّســقةٍ ومُنســجمة، هي موضعُ اتّفــاقِ العلماء. وإلاّ لولا هذه القوانين، لا معنى للحديثِ عن أيّ علمٍ من العلوم الطبيعيَّة كالفيزياء والكيميــاء والبيولوجيــا والفلك والطــبّ وغيرِها، لأنّها علــومٌ مبنيّةٌ على أساسِ الإقرارِ بوجودِ قوانينَ كونيّةٍ عامّة، كقانون الجاذبيّة، وقانون الحركة، وقانون الاطّراد... إلخ.

إلى ذلــك، فإنّ النظام لا يُعاينه الخبيرُ المتخصِّصُ فحســب. بل إنّ كلَّ إنسانٍ يُلاحِظُ هذه النظمَ في الكون، بتكـــــرُّرِ مشاهـــــداته الحسّيّة. ويحدِّدُ أســاليبَ حياته العَمَليَّة في التجارةِ والزراعةِ والصيدِ والسفر و...، في ضوءِ الحركةِ المنتظمةِ للظواهر الكونيّة. كحركةِ الشمسِ من الشرق إلى الغرب، وتعاقــب الليل والنهار، والفصول الأربعــة، ومواقع النجوم، إلى عشراتِ آلاف الظواهرِ التي تعملُ على نحوٍ منتظم، فتُســهِّلُ علينا مســيرةَ الحياة.

لقـد صدق فرنسـيس بيكـون - وهو الأبُ المؤسّـس للمنهـج العلميّ الحديث - عندما قال: «هؤلاء الذين يُنكِرون الله يحطّمون كرامةَ الإنسان. لأنَّ الإنسانَ من حيثُ الجسم، شبيه بالدوابّ. وإذا لم يشبه الله من حيث الروح، أضحى مخلوقاً وضيعاً وحقيراً»[1].

١ - محسن جهانكيري، فرنسيس بيكون آراؤه وآثاره، ص٢١١.

# المصادر والمراجع

## القرآن الكريم

١. ابـن سـينا: الشـفاء- المنطـق، البرهان، تصديـر ومراجعـة إبراهيم مدكور، تحقيق أبو العـلا عفيفي، نشر وزارة التربية والتعليم الإدارة العامة لثقافة بمناسبة الذكرى الألفية للشـيخ الرئيس، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م.

٢. أحمـد بن فارس بن زكريا ابن فارس: معجـم مقاييس اللغة، تحقيق وضبـط عبد السـلام محمـد هـارون، مكتب الإعـلام الإسـلامي، قم، ١٤٠٤هـ.

٣. إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح- تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيـق أحمـد عبـد الغفور عطـار، دار العلـم للملايين، بـيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٤. أوجست كونت: دروس في الفلسفة الوضعية، درس ٢٨، نشره ليتريه سنة ١٨٦٤م.

٥. برتراند رسل: لماذا لست مسـيحيًّا، ترجمة عبد الكريم ناصيف، دار التكوين للتأليف والترجمة ، ط١، ٢٠١٥م.

٦. برتراند رسل: مشكلات الفلسفة، ترجمة سمير عبده، دار التكوين للتأليف والترجمة، ط١، ٢٠١٦م.

٧. بيار ماشيري: كونت الفلسفة والعلوم، ترجمة سامي أدهم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٨. ج. بنروبي، مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا، ترجمة عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

٩. جار الله الزمخشري: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

١٠. جورج بوليتزر؛ وجي بيس؛ وموريس كافين: أصول الفلسفة الماركسيَّة، ترجمة شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية صيدا- بيروت.

١١. حسن بن أحمد اللواتي: المُصمِّم الأعظم قراءة نقدية في كتاب التصميم العظيم لستيفن هوكنج، العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ط١، ٢٠١٧م-١٤٣٩هـ.

١٢. حسن حنفي: دراسات فلسفيّة، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة.

١٣. سامر توفيق عجمي: الوضعية دارسة مفهومها ومنزلتها في علم المعرفة المعاصر، المنضورة ضمن كتاب: جوهر الغرب، مجموعة باحثين، المركز الإسلاميّ للدراسات الإستراتيجيّة، النجف الأشرف، ط١، ١٤٤٣هـ-٢٠٢٢م.

١٤. ستيفن هوكينغ؛ وليونارد مولدينوو: التصميم العظيم، إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى، ترجمة أيمن أحمد عياد، دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

١٥. الشريف الرضي: نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

١٦. عبد الرحمن العيسوي: دراسات في تفسير السلوك الإنسانيّ، دار راتب الجامعية، بيروت، ١٤١٩هـ.

١٧. عبد الرحمن بدوي: تاريخ الإلحاد في الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

١٨. عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

١٩. عبد الكريم الشهرستانيّ: نهاية الأقدام في علم الكلام، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.

٢٠. عبد الله بن صالح العجيري: ميليشيا الإلحاد- مدخل لفهم الإلحاد الجديد، تكوين للدراسات والأبحاث، ط٢، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.

٢١. عبد الله دراز: الدين- بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم، بيروت.

٢٢. علي بن محمد الليثي الواسطي: عيون المواعظ والحكم، تحقيق الشيخ حسين الحسني البيرجندي، دار الحديث، قم، ١٣٧٦هـ.ش.

٢٣. فلو أنتوني؛ وروي إبراهام فارجيس: هناك إله- كيف غيّر أشرس ملاحدة العالم أفكاره؟!، ترجمة جنات جمال، مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالج النوازل العقدية، ط١، ٢٠١٧م.

٢٤. لودفيج فويرباخ: جوهر الدين، ترجمة وتقديم أحمد عبد الحليم عطية، دار المعارف الحكمية، بيروت، ط١، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م.

٢٥. ليستر إدغار ماكغراث؛ وجوانا كوليكات ماكغراث: وهم دوكينز- الأصوليّة الملحدة وإنكار الإله، ترجمة محمد عودة، العتبة العباسيّة المقدّسة، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، ط١، ٢٠١٧من-١٤٣٨هـ.

٢٦. محسن جهانكيري: فرنسيس بيكون آراؤه وآثاره، تعريب عبد الرحمن العلوي، دار الهادي، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٧. محمد الشيرازي (المعروف بصدر المتألهين): الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨١م.

٢٨. محمد باقر الصدر: اقتصادنا، دار التعارف، بيروت، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٢٩. محمد باقر الصدر: الأسس المنطقيَّة للاستقراء، دار التعارف، بيروت، ط٥، ١٩٨٦م.

٣٠. محمد باقر الصدر: السنن القرآنية للمجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٣١. محمد باقر الصدر: المرسل الرسول الرسالة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٣٢. محمد باقر الصدر: فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط١٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٣٣. محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٣٤. محمد بن علي الصّدوق: التوحيد، تحقيق علي أكبر الغفاري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٣٥. محمد بن علي الصدوق: علل الشرائع، منشورات المكتبة الحيدريّة، النجف، ١٩٦٦م.

٣٦. محمد بن علي الصّدوق: معاني الأخبار، تعليق علي أكبر الغفاري، تقديم حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٣٧. محمد بن علي الصدوق: من لا يحضره الفقيه، تصحيح علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلميّة في قم المقدسة، ط٢.

٣٨. محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، ج٣، نشر أدب الحوزة، قم- إيران، ١٤٠٥هـ.

٣٩. محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، صححه وعلّق عليه علي أكبر

الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط١، ١٣٨٨هـ.

٤٠. محمد تقي المصباح اليزدي: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ترجمة عبد المنعم الخاقاني، دار الروضة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٤١. محمد تقي المصباح اليزدي: دروس في العقيدة الإسلامية، ترجمة عبد المنعم الخاقاني، دار الرسول الأكرم، بيروت-لبنان، ط٨، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٤٢. محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، دار الكتب الإسلامية، تهران، ١٣٧٢هـ.ش.

٤٣. محمد حسين الطباطبائي: تقديم وتعليق مرتضى مطهري، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي، ترجمة عمار أبو رغيف، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

٤٤. محمد حسين الطباطبائي: نهاية الحكمة، تصحيح وتعليق الشيخ عباس علي الزارعي السبزواري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط١٤، ١٤١٧هـ.

٤٥. محمد رضا المظفر: المنطق، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٤٦. محمد مهدي الآصفي: دور الدين في حياة الإنسان، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٥م.

٤٧. محمد مهـران؛ ومحمد مدين: مقدمة في الفلسـفة المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٤٨. مرتـضى مطهـري: الدوافـع نحـو الماديـة، ترجمـة محمد علي التسخيري، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

٤٩. مرتـضى مطهـري: المجتمـع والتاريـخ، دار المرتـضى، بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٥٠. هيثـم طلعـت: العـودة إلى الإيمـان، مركـز براهـين للأبحـاث والدراسات، ط٢، ٢٠١٦م.

٥١. يوسـف كرم: تاريخ الفلسـفة الحديثـة، دار القلم، بيروت، (لا ط) (لا ت).

# الفهرس

٥ | مقدمة

الفصل الأول | ٩
مفهوم الإلحاد: دراسة تحليليّة

١١ | المبحث الأول: ما هو الإلحاد؟

٢٠ | المبحث الثاني: المقدِّمات المنطقيَّة لتحليل مفهوم الإلحاد

٣٢ | المبحث الثالث: المواقف الفلسفيّة المتعدّدة من سؤال: هل الله موجود؟

الفصل الثاني | ٤٥
هل يمكن وجود الملحد الواقعيّ؟

٤٧ | المبحث الأول: هل يمكن إثبات الإلحاد منطقيًّا؟

٥٣ | المبحث الثاني: هل يمكن إثباتُ الإلحاد الواقعيّ علميًّا؟

المبحث الثالث
هل يمكن وجودُ الملحد الواقعي فطريًّا؟
وهل يمكن ذلك في ضوء نصوص الوحيّ الإلهيّ؟ | ٦٩

الفصل الثالث | ٨٣
نظريَّات الملحدين في تفسير الإيمان بالله ,تعالى,

المبحث الأول: الإيمان بالله ينشأ من الجهل بالظواهر الطبيعية | ٨٥

المبحث الثاني: الإيمان بالله يتعارض مع التقّدم والتطوّر | ٨٣

المبحث الثالث: الإيمان بالله وليد «فتنة الخوف» | ١٠٥

المبحث الرابع: الإيمان بالله وليد الصراع بين الطبقات الاجتماعيّة | ١١٢

الفصل الرابع | ١١٩
نموذجان من الملحدين المعاصرين
(ريتشارد دوكنز، وستيفن هوكنغ)

١٢١ | المبحث الأول: عالم الأحياء التطوّريّة ريتشارد دوكنز

١٣٠ | المبحث الثاني: عالم الفيزياء الكونيّة ستيفن هوكنغ

١٤١ | المبحث الثالث: من صمَّم المصمّم العظيم؟ أو من خلق الله؟

١٤٩ | المبحث الرابع: الدليل العلميّ على وجود الله, تعالى

١٦١ | المصادر والمراجع

هو مركز بحثي مستقل غير ربحي، مركزه في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والاكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها ذلك الحراك الاجتماعي والانساني الكبير، الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية؛ ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة، سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

# في هذا الكتاب

هل قرأتَ عن الإلحاد، واللاأدريّة، واللااكترائيّة؟
هل سمعتَ باسم الفيزيائيّ الملحد ستيفن هوكينغ صاحب كتاب «التصميم العظيم»، أو عالم الأحياء التطوريّة الملحد ريتشارد دوكنز مؤلف كتاب «وهم الإله»، أو كريستوفر هيتشنز، صاحب كتاب «الله ليس عظيمًا، كيف يسمِّم الدين كلّ شي؟»
وهل قرأت تجربة أنتوني فلو ورحلته من الإلحاد إلى الإيمان وتأليفه كتاب «هناك إله»؟
لعلّك سمعت وقرأت عن ذلك، نتيجة الانفتاح على عالم الإنترنت والفضاء المجازيّ. مع أنّ الإلحاد ليس حديثًا، بل هو ممتدّ في التاريخ، لكنّه اليوم أشدّ حضورًا وأكثر فتكًا؛ لأنّه يدثّر نفسه بثوب العلميّة، ويدّعي الاستناد إلى معطيات العلوم الطبيعيّة كالفيزياء الكونية أو البيولوجيا أو علم الفلك... وقد أثّرت هذه الموجات في عقول بعض الشباب، وقصفت أذهانهم بالشبهات والمغالطات.
في هذا الكتاب سنضع الإلحاد المعاصر على مشرحة البحث، باعتبار كونه -من وجهة نظرنا- كائنًا ميّتًا، وسنقوم بتشريحه، وتحليله، لنكتشف أنّه لا روح فيه ولا حياة، لا يصمد أمام المنطق والعقل والعلم والفطرة.

• الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز •

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد